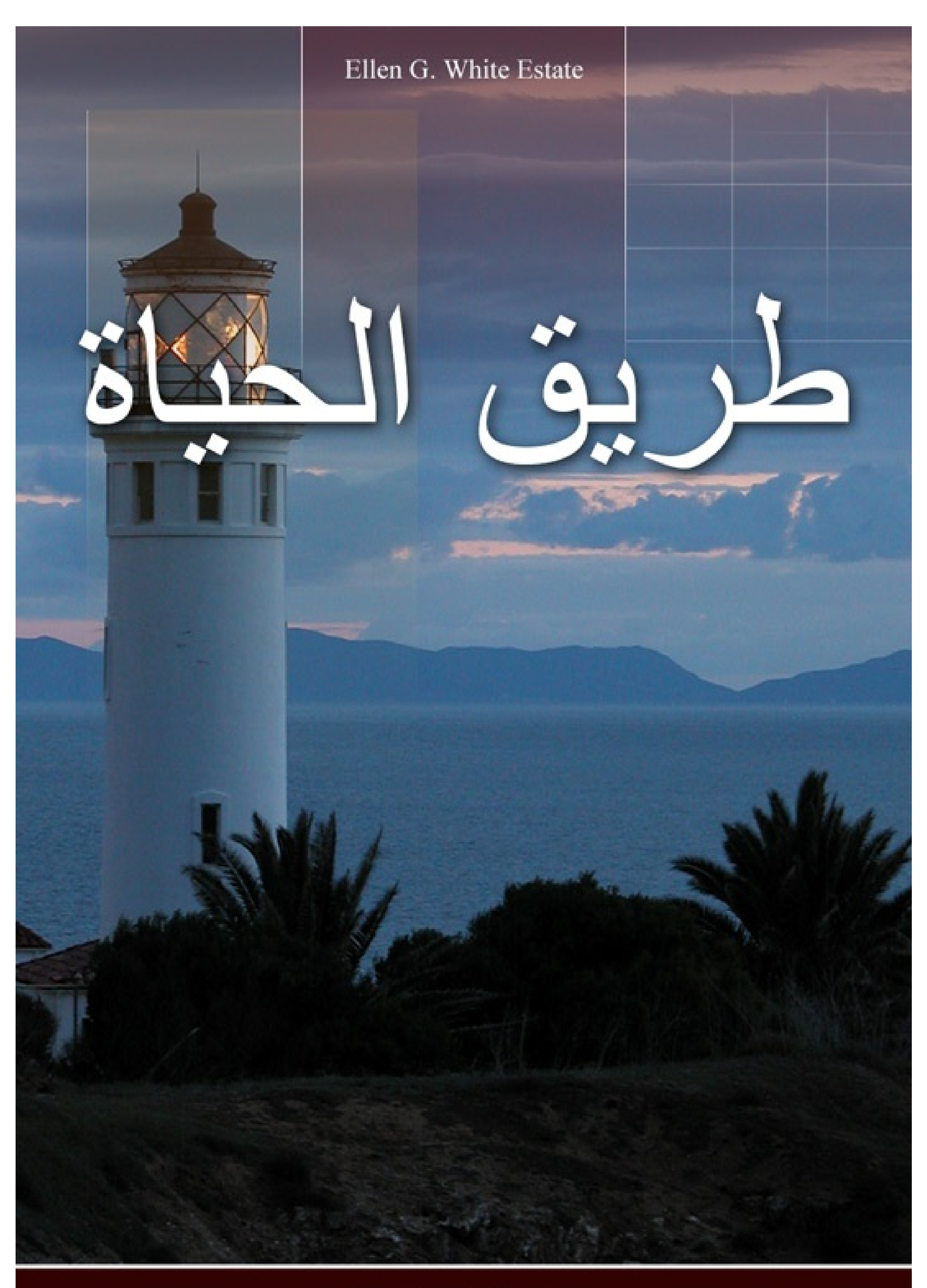


ELLEN G. WHITE


Ellen G. White Estate
طريق الحياة
ELLEN G. WHITE

ELLEN G. WHITE

طريق الحياة

Ellen G. White

جدول المحتويات

Information about this Book

Overview

This eBook is provided by the Ellen G. White Estate. It is included in the larger free Online Books collection on the Ellen G. White Estate Web site.

About the Author

Ellen G. White (1827-1915) is considered the most widely translated American author, her works having been published in more than 160 languages. She wrote more than 100,000 pages on a wide variety of spiritual and practical topics. Guided by the Holy Spirit, she exalted Jesus and pointed to the Scriptures as the basis of one's faith.

Further Links

A Brief Biography of Ellen G. White
About the Ellen G. White Estate

End User License Agreement

Further Information

For more information about the author, publishers, or how you can support this service, please contact the Ellen G. White Estate at mail@whiteestate.org. We are thankful for your interest and feedback and wish you God's blessing as you read.

المقدمة

يسرنا أن نزف إلى القراء الكرام في أصقاع العالم العربي هذه الطبعة الثالثة من كتاب "طريق الحياة"، و أننا، إتمامًا للفائدة، قد أضفنا الفصلين الناقصين في الترجمة الأولى، و لعلهما من اهم مواد الكتاب، فجاءت الطبعة الثالثة مكمّلة تامة.

هذا و قد توخينا في الترجمة الثانية بساطة اللغة مع مراعاة الدقّة في التزام الأصل الانجليزي، ذلك لأننا نعتقد أن عرض الأبحاث العميقة، و لا سيما في الموضوعات الدينية الروحية، التي يتناولها هذا الكتاب، يقتضي الإيضاح و إحكام التعبير على نسق سهل المراس، تمشيًا مع الأسلوب الأصلي الخالي من التزويقات البيانية و المحسنات اللفظية المنمّقة، و تفاديًا من صرف ذهن القارئ عن التأمل في الحقائق الخالدة المقدّمة من الله على صفحات هذا الكتاب، فان رغبتنا إنما هي في أن تكون هذه الحقائق الثمينة دانية القطوف لخاصة القراء و عامتهم على أحسن وجه و أتم مرام

و نطالب إلى المولى تعالى أن يجعل هذا الكتاب بركة لقراء العربية كما جعله بركة للكثيرين في اكثر من عشرين لغة [1] [iii]

محبّة الله

تشهد الطبيعة شهادة الوحي بان "الله محبة" فأبونا السماوي هو مصدر الحياة و منبع الحكمة و الوفاء، تأمل مثلاً جمال الطبيعة و عجائبها، و لاحظ ملاءمتها لجميع حاجات الإنسان و الحيوان و لسعادة كل الكائنات، فالشمس و المطر اللذان ينعشان الأرض و يجددان وجهها، و الجبال و البحار، و السهول و الأنهار التي تبهج الأبصار - كلها تحدثنا بمحبة صانعها الذي يرزق كل حي في كل آن و مكان. و لقد انشد في ذلك المرنم قائلاً: [2]

خلق الله الإنسان بارًا سعيدًا، و صنع له الأرض الجميلة خلوًا من كل لعنة، بريئة من كل فساد، أما اللعنة فجلبها التعدي و الموت، فقد ملك بمخالفة أمر الله، ناموس المحبة. غير أن الآلام التي أثمرتها الخطية لم تحل دون إظهار محبة الله، بل ، كما هو مكتوب، "ملعونة الأرض بسببك" أي لأجلك. فما الحسك و الأشواك، متاعب الحياة و صعابها، سوى درجات سلم القداسة و الكمال يستخدمها الله وسائط لرفع الإنسان من وهدة الخطية و إنقاذه من نتائجها الأليمة. فلئن كان العالم قد أضحى خاطئًا أثيما، ليس المعنى أن كل ما فيه محض شقاء و عناء. فالطبيعة لم تزل تحمل رسائل الرجاء و العزاء، إذ أن حسكها تعلوه الأزهار، و أشواكها تكسوها الورود

إن آيات هذه المحبة لمسطورة على كل كم من أكمام الأزهار و على كل ورقة من أوراق الأشجار، معلنة لنا في كل قطرة ماء، و في كل ذرة هباء، و في كل نجم لامع وفي كل كوكب ساطع، و في أناشيد البلابل و أغاريد العصافير - كلها تشهد لعناية الله بنا و تعلن رغبته الأبوية في إسعادنا طرًا

غير أن إعلان الطبيعة مع ما فيها من آيات بينات لم يكن كافيا للإنسان لذلك أعطانا الله كلمته التي اعلن فيها صفاته و كمالاته، فحين طلب موسى أن يرى مجد الله، خروج ٣٣ : ١٨ و ١٩، اعلن الله صفاته لموسى بقوله تعالى "الرب الرب اله رحيم و رؤوف، بطيء الغضب و كثير الإحسان و الوفاء، حافظ الإحسان إلى الوف، غافر الإثم و المعصية و الخطية" خروج ٣٤ : ٦ و ٧ ثم بقوله للنبي يونان "لأنه بطيء الغضب و كثير الرحمة" يونان ٤ : ٣، و أيضًا للنبي ميخا "فانه يسر بالرأفة" ميخا ٧ : ١٨. إن هذا هو مجده تعالى

و هكذا عمل الله على اجتذاب قلوبنا إليه بآيات لا تحصى مما في السماء و ما على الأرض، فقد جرّب أن يعلن ذاته لنا في الطبيعة و بانتسابه إلينا بأعزّ [3] روابط القربى و أوثقها، و إن كانت هذه تمثل محبته تمثيلاً مبتورًا، و على رغم ذلك استطاع الشيطان أن يعمي البصائر و الأذهان و أن يجعل الناس ينظرون إلى الله نظرة تخوّف و تهيب، و ييأسون من عفوه و رحمته، و يرون فيه إلهًا قاسيًا لا

يرحم و لا يشفق، يحصي على الناس زلاتهم، و يرقب عوراتهم و سيئاتهم و يتربص بهم الدوائر لكي يوقع بهم و ينتقم منهم، فلأجل إزالة هذه النظرة المظلمة، و لكي يعلن لنا محبة الله الفائقة الوصف، جاء يسوع من السماء و حل بين الناس

اجل، من السماء جاء ابن الله ليعلن لنا الآب، لان "الله لم يره احد قط الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبر"، يوحنا ١ : ١٨، و "ليس احد يعرف الآب إلا الابن، و من أراد الابن أن يعلن له" متى ١١ : ٢٧، و حين سأله احد تلاميذه، قائلا، أرنا الآب أجابه "أنا معكم زمانًا هذه مدته و لم تعرفني يا فيليبس، الذي رآني فقد رأى الآب، فكيف تقول انت أرنا الآب" يوحنا ١٤ : ٩

لقد وصف يوسع رسالته و مهمته على هذه الأرض فقال، "روح الرب عليّ لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق و للعمي بالبصر، و ارسل المنسحقين في الحرية" لوقا ٤ : ١٨، هذا كان عمله، "فجال يصنع خيرًا و يشفي جميع المتسلط عليهم ابليس"، فكم من قرى عمها البر و البرء، و كم من ضياع نالت الشفاء و العافية لأن يسوع كان قد اجتاز في وسطها، فعاد مرضاها و تجنن على صرعاها، و حيثما سار يسوع ابن الإنسان، سارت في ركابه المحبة و الرحمة و الحنان، و كفى شاهدًا على حبه و عطفه انه قد اتخذ طبيعتنا و صار مثلنا في كل شيء ما عدا الخطية، مما شجع الخطاة المنبوذين على الدنو منه و التحدث إليه، و جعل الصغار يلتفون حوله، و يأنسون به و يتفرسون في ما يبدو على محياه من علامات الجد و الاهتمام، و دلائل الحب و الأنغام

لقد حرص يسوع دائمًا على أن يعلن الحق كله، دون أن يكتم منه شيئًا، [4] أو يخشى فيه لومة لائم، و لكنه فعل ذلك بروح المحبة، و كان في مخالطته الناس يوليهم اكبر جانب من عنايته و اهتمامه و يراعي معهم كل ما تقتضيه واجبات اللياقة و اللباقة، فما عامل أحدًا بالغلظة قط، و لا تفوّه بكلمة موجعة، و لا عمل على إيلام مخلوق بدون داع أو موجب، و لا راقب زلات العباد و سقطاتهم، و مع ذلك فانه لم يتردد قط في مكاشفة الناس بالحقيقة في صراحة و شجاعة منذرًا إياهم في ترفق و وداعة

فقد نعى على آلناس نفاقهم، و دان نكرهم و كفراتهم، و لكنه كان دائمًا يمزج تحذيراته و توبيخاته بدموعه و عباراته. و من ذلك انه بكى على أورشليم المدينة التي احبها، مع أنها لم تقبله، و هو الطريق و الحق و الحياة، و للقد عامل قومه بكل رفق و حنان مع انهم رفضوه، فرفضوا بذلك عونهم و خلاصهم، و كان، مع ماله من العزة الربانية و الكرامة الإلهية، ينظر إلى كل مخلوق ينتمي إلى يسرة الله بعين الإكبار و الاعتبار، لأن كل نفس من نفوس العباد كانت حبيبة إليه عزيزة عليه، بل هو كان يتطلع إلى كل إنسان فيرى فيه نفسًا ثمينة قد وكل إليه من السماء أمر تخليصها و إنقاذها

تلك هي صفات المسيح كما تجلت في حياته، و هي بعينها صفات الآب تعالى، فانه منن قلب الله تدفقت المراحم الإلهية لبني البشر بواسطة المسيح، فيوسع الرؤوف العطوف، إنما هو الله قد ظهر في الجسد. ١ تيموثاوس ٣ : ١٦

و لئن كان يسوع قد عاش و تألم و مات، و صار رجل أوجاع و مختبر الحزن فما ذلك كله إلا لكي يجعلنا شركاءه في الأفراح الأبدية. و هكذا سمح الله تعالى بان ينزل ابنه الحبيب، مملوءًا نعمة و حقًا، من عالم المجد الفائق إلى عالم ملوث بالإثم، و موبوء بالخطية، و إلى ارض قد جللها سواد الموت، و غشتها أشواك اللعنة، بل هكذا سمح الله لابنه الوحيد بان يترك أحضان المحبة الأبوية، و ما يحف به من العبادات الملائكية، لكي يأتي إلى بني البشر حيث هم، محتملاً منهم العار و الهوان، و الكراهية و النكران. و في النهاية مات ميتة المذنبين المجرمين، لأن "تأديب سلامنا عليه و بحبره شفينا" اشعياء ٥٣ :٥ [5]

تطلع إليه و هو في جثسيماني و هو على الصليب فهذا ابن الله القدوس، الذي لم يعمل ظلمًا، و لم يكن في فمه غش، قد ناءت كاهلاه تحت أعباء اللعنة و اثقال الخطية، ثم انظر إليه ثانية، فترى ابن الله الذي كان في اتحاد تام مع الآب، قد اصبح يشعر بتلك العزلة الرهيبة، و الهوة السحيقة التي تفصل الإنسان الخاطئ عن الله، مما جعله يصرخ صرخة متألم متوجع بقوله "الهي الهي لماذا تركتني" ، متى ٢١ : ٤٦، فان شعوره بفداحة عبء الخطية، و إدراكه لهول جرمها، و إحساسه بانفصام عرى الشركة بين النفس و بين الله كانت الأمور التي عملت على سحق قلب ابن الله الحبيب

على أن هذه التضحية العظمى لم يأتها الابن ليخلق في قلب الآب محبة للإنسان، و لم يقصد بها أن يجعل عند الآب الرغبة في العمل على خلاص الإنسان، كلا، "لأنه هكذا احب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد" يوحنا ٣ : ١٦. فالكفارة، إذن، لم تكن هي علة المحبة التي احبنا بها الآب، وإنما الآب احبنا فاعدّ لنا الكفارة، و كان المسيح هو الواسطة التي بها سكب الله محبته على عالم قد ضل و هوى، إذ "كان الله في المسيح مصالحًا العالم لنفسه"، ٢ كورنثوس ٥ : ١٩. ففي بستان جثسيماني، و على صليب الجلجثة، تألم الآب مع ابنه، و دفعت المحبة ثمن فدائنا غاليًا

و ليس ادلّ على محبة الآب لنا مما نطق به يوسع نفسه في قوله : "لهذا يحبني الآب لأني أضع نفسي لأخذها" يوحنا ١٠ : ١٧. فكأني به يقول : لقد زادت محبة أبي لي و زاد تقديره إياي لكوني قد بذلت حياتي لأجلكم طائعًا مختارًا، و رضيت بان اكون بديلكم و كفيلكم، حاملاً ذنوبكم و موفيًا ديونكم، لأنه بفضل ذبيحتي الفدائية، و أعمالي الكفارية، امكن الله تعالى أن "يكون بارًا و يبرر من هو من الإيمان بيسوع المسيح" رومية ٣ : ٢٦

لم يستطع أن يفدينا غير ابن الله، إذ لم يقدر أن يعلن الله غير الذي كان في حضنه، الذي وحده استطاع أن يظهر محبته لأنه سبر غورها و بلغ ذراها، [6] و لم يكن ليكفي للتعبير عن محبة الله للبشرية الهالكة تعبيرًا وافيًا إلا الذبيحة اللامتناهية التي قدمها يسوع لفدائنا

لأنه هكذا احب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد"، و قد بذله، لا لكي يعيش بين البشر، و يحمل" خطاياهم، و يموت ذبيحة عنهم، فحسب، بل وهبه للجنس البشري هبة، فصارت شؤونهم شؤونه، و حاجاتهم حاجاته فالذي هو واحد مع الآب ارتبط بالبشرية ارتباطًا لا تنفصم عراه أبدًا، "فهو لا يستحي أن يدعوهم إخوة" عب ٢ : ١١، لأنه هو ذبيحتنا، بل شفيعنا بل أخونا، يحمل صورتنا كابن الإنسان و هو على عرش الآب، فهو إلى الأبد واحد مع الجنس الذي فداه بدمه، و قد صار ذلك كله لأجل رفع الإنسان من وهدة الخطية و خرابها إلى الاشتراك في فرح القداسة و إلى إعلان محبة الله للعالمين

إن ثمن فدائنا الغالي، أي تضحية أبينا السماوي في بذل ابنه الوحيد لأجلنا، ليدل على المقام الرفيع الذي قد نبلغه في المسيح، فالرسول الملهم، يوحنا الحبيب، إذا أدرك شيئًا من علو محبة الله و عمقها و عرضها، و لم يجد كلمات بها يعبر عن عظم هذه المحبة لجنس هالك، دعا الجميع للتأمل فيها قائلاً "انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله" ١ يوحنا ٣ : ١. فما اعظم مقام الإنسان نتيجة لهذا الفداء. فبنو الإنسان الذين قد صاروا بالمعصية رعايا ابليس يصيرون بالإيمان بذبيحة المسيح الكفارية أبناء الله. يتجسده رفع يسوع شأن البشرية و جعل الخطاة الهالكين في مركز يستحقون فيه اللقب السامي العظيم "أولاد الله"

إن هذه المحبة منقطعة النظير، أن نكون أولادًا لملك السماء. انه لوعد ثمين و عهد كريم، و موضوع يستحق التأمل العميق ـ موضوع محبة الله القدير لعالم لم يحبه. إن لهذه الفكرة، إذا استغرق المرء فيها، قوة على إخضاع النفس، و قدرة على استئسار الذهن لإرادة الله، لأن التأمل في صفات الله، في ضوء الصليب، ليعلن لنا الرحمة و الشفقة و المغفرة، متحدة بالعدالة و البر [7] والقداسة، و ليجلي

لنا أثار حب لا حد له، يفوق محبة الأم و حنانها على ولدها التائه الشريد

الحاجة إلى المسيح

لقد خصّ الله الإنسان، حين خلقه، بقوى سامية و عقلية متزنة، فكانت حياته حياة الكمال و التوافق مع الله، و كانت أفكاره طاهرة، و أغراضه مقدسة، و لكنه ما لبث أن عصى ربه و خالف أمره، فحلت فيه الأثرة و الأنانية محل الإيثار و التضحية و بات ضعيفًا عاجزًا لا يقوى على مقاومة سلطان الخطية و تأثيرها بجهوده الذاتية و قوته الشخصية، لأن الشيطان قد استأسره، و لولا أن الله تعالى لطف بالإنسان و تدخل في أمره، لأبقاه الشيطان ابد الدهر في قبضته و اسره، فقد كان قصد المجرّب أن يعطل تدبيرات الله، و يحول دون تحقيق مقاصده السامية بشأن الإنسان فيملأ الأرض علقمًا و صابًا، و يجعلها بلقعًا و خرابًا، حتى إذا تم له ما أراد، نسب كل هذا البلاء المرير و الشر المستطير إلى الله تعالى، لأنه خلق الإنسان و خصّه بمثل هذا الكيان و الوجدان

فالإنسان في براءته كان يتصل اتصالاً بهجًا "بالمذخر فيه جميع كنوز [9] الحكمة و العلم" كولوسي ٢ : ٣. أما و قد اخطأ فلم يعد يرى في الطهارة لذة و سرورًا أو في محادثة ربه فرحًا و حبورًا، بل حاول أن يتوارى و يختبئ من حضرة الله، و هذه حالة كل إنسان لم يتجدد بعد إذ انه لا يكون في حالة وئام مع الله، و لا يشعر بفرح في الاتصال به و التحدث إليه. فالخاطئ لا يمكنه أن يكون سعيدًا و هو في حضرة الله كما انه ينفر من معاشرة الملأ الأعلى، فلو أتيح له أن يدخل السماء، لما بعث ذلك فرحًا في نفسه، لأن نفسه لا تطرب لروح الإيثار الذي يسود سكان السماء، و قلبه لا يتجاوب مع قلب المحبة العظمى، فضلاً عن أن اهتمامه، و أفكاره، و دوافعه، تبدو غريبة و مناقضة لبواعث أولئك البررة الاطهار. فهو إذن يكون كنغمة ناشزة في لحن السماء، بل تكون السماء له مكان الم و تعذيب حتى ليود أن يختبئ من ذاك الذي هو مصدر نورها و مبعث بهجتها و حبورها، فليس حرمان الأشرار من دخول السماء أمرًا مقضيًا به من الله، بل عدم صلاحيتهم لها هو الذي يحول دون دخولهم إليها، إذ أن مجد الله يكون لهم نارًا آكلة، حتى انهم ليلتمسون الهلاك التماسًا تواريًا من وجه ذاك الذي مات لكي يفتديهم

انه ليستحيل علينا أن ننقذ انفسنا من هوة الخطية التي تردينا فيها، فقلوبنا شريرة و ليس في استطاعتنا أن نغير ما بها، كما يصف ذلك أيوب في قوله : "من يخرج الطاهر من النجس لا احد". أيوب ١٤ : ٤، و كقول الرسول بولس : "لان اهتمام الجسد هو عداوة لله إذ ليس هو خاضعًا لناموس الله، لأنه أيضًا لا يستطيع" رومية ٨ : ٧. أما وسائل التربية و التعليم، و التهذيب و التثقيف، و تدريب الإرادة، و ما إلى ذلك من الجهود البشرية التي تبذل في سبيل ترقية الإنسان، فهذه كلها لها قيمتها و مكانتها في نواح أخرى من الحياة، لكنها في هذا الموضوع بالذات عديمة الجدوى. فهي قد تكون ذات تأثير في تحسين سلوك الإنسان و صقله من الخارج، و لكنها لن تقوى على تغيير قلبه و تطهير بواعثه و أفكاره، لان الانتقال من الحياة الخطية و الرذيلة، إلى حياة القداسة و الفضيلة، يستلزم حتمًا قوة تعمل على تغيير الإنسان من الداخل، [10] و يقتضي حياة جديدة يؤتاها الإنسان من فوق، و هذه القوة هي المسيح، فان نعمته وحدها هي التي تحيي النفس المائتة، و تجتذبها نحو الله، و تستميلها إلى حياة القداسة و الكمال

و قد قال المخلص أن كان احد لا يولد من فوق، أي انه ما لم يحصل الإنسان الخاطئ على تجديد في

قلبه و أفكاره، و رغائبه و بواعثه، فانه لا يقدر أن يرى ملكوت الله. يوحنا ٣ : ٣. فالفكرة في أن الحاجة الوحيدة إنما هي إلى تنمية التقوى الفطرية و الصلاح الطبيعي الكامنين في نفوسنا، إن هي إلا خدعة مميتة، لان الإنسان الطبيعي أي غير المتجدد "لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة و لا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يحكم فيه روحيًا" ١ كورنثوس ٢ : ١٤. "فلا تتعجب إن قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق" يوحنا ٣ : ٧. هذا من جهة، و من جهة أخرى، فان المسيح وحده هو المكتوب عنه "فيه كانت الحياة و الحياة كانت نور الناس" يوحنا ١ : ٤، و أيضًا "ليس اسم آخر تحت السماء قد اعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص" اعمال ٤ : ١٢

فلا يكفي أن نشعر برحمة الله، و ندرك ما تنطوي عليه صفاته من الشفقة و الحنو الأبوي، و لا يكفي أن ندرك حكمة الناموس و عدالته، و ندرك انه قائم على مبدإ المحبة الأبدي. فبولس كان مدركًا لهذه كلها حين قال "فاني أصادق الناموس له حسن" رومية ٧ : ١٦، و انه "مقدس و الوصية مقدسة و عادلة و صالحة" رومية ٧ : ١٢، و لكنه مضى يقول أيضًا و هو في مرارة الألم و اليأس "أما أنا فجسدي مبيع تحت الخطية" رومية ٧ : ١٤، إذ انه كان يتوق إلى البر و الطهارة، و لكنه كان عاجزًا في نفسه عن بلوغها، مما جعله يصرخ قائلاً :"و يحي أنا الإنسان الشقي. من ينقذني من جسد هذا الموت" رومية ٧ : ٢. و لقد ردد مثل هذه الصرخة، في كل الأعصار و الأمصار كثيرون من ذوي القلوب المثقلة بالخطية، و لم يكن لهم من جواب سوى قوله تعالى "هو ذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" يوحنا ١ : ٢٩

كثيرة هي الصور و الرموز التي بها التمس روح الله تمثيل هذه الحقيقة [11] لتكون واضحة جلية لكل من يتوق إلى التحرر من عبء الخطية. و من تلك الصور ما اعلنه الله ليعقوب حين هرب على اثر مخادعته لإسحاق أبيه، فقد كان يعقوب ينوء بذنبه و يرزح تحت ثقل إثمه، حتى أن تخوّفه من خطيته طغى على كل ما كان يشعر به من الفراق و البعاد، و الحرمان و الانفراد. و كان جلّ ما يخشاه تؤدي خطيته إلى فصله عن الله، و إقصاءه عن السماء. و بينما هو على هذه الحالة من الحزن و الكآبة استلقى على الأرض، مفترشًا الغبراء، و ملتحفًا بالعراء، و لم يكن حوله سوى تلال موحشة جرداء. و لما نام طرق عينيه نور غريب، فإذا منظر سلم متسع، بدا له من السهل الذي كان مضطجعًا فيه، و كان السلم متجهًا إلى فوق، و مؤديًا إلى باب السماء، و على درجاته يصعد ملائكة الله و ينزلون، و من المجد الاسنى، سمع الصوت الإلهي يردد رسالة العزاء و الرجاء، و يعلن ليعقوب ما كان يصبو إليه قلبه، أي انه تعالى يكون له حافظًا و مخلصًا، ففي غمرة الفرح و الشكر تجلّى له الطريق الذي به يستطيع، كخاطئ، أن يسترد اتصاله بالله، إذ أن السلم التي ظهرت له في الحلم، إنما هي تمثل المسيح، الوسيط الوحيد، بين الله و الإنسان

و إلى هذا الرمز عينه أشار المسيح في حديثه مع نثنائيل إذ قال "الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة، و ملائكة الله يصعدون و ينزلون على ابن الإنسان" يوحنا ١ : ٥١. فان الإنسان إذ عصى الله و ارتد عنه، قد أقصى نفسه عن حضرة الله، فانفصلت بذلك الأرض عن السماء، و صارت بينهما هوة لم يستطع احد عبورها، و لكن بواسطة المسيح، و بفضل استحقاقاته، أزيلت الهوة التي أحدثتها الخطية، و أعيدت سلم الاتصال بين الأرض و السماء، فتسنى للملائكة بذلك أن يتخاطبوا مع البشر و يكونوا في خدمتهم فبالمسيح إذن و به وحده يمكن للإنسان الضعيف العاجز أن يجدد اتصاله بمصدر القوة التي لا تحدّ

من العبث أن يحلم الناس بإحراز شيء من التقدم و النجاح، و من الباطل أن يسعوا لرفع شأن الإنسانية، ما داموا مصرّين على تجاهل ذلك المصدر [12] [13] الأعلى، الذي يجب أن تستمد منه البشرية الصريعة كل معونة و رجاء، لان "كل عطية صالحة و كل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار الذي ليس عنده تغيير و لا ظل دوران" يعقوب ١ : ١٧. و من العبث أيضًا أن يحاول

الإنسان التحلي بمكارم الأخلاق و هو بعيد عن المسيح، لأنه ليس من سبيل للوصول إلى الله إلا بواسطة ذاك الذي قال عن نفسه "أنا هو الطريق و الحق و الحياة. ليس احد يأتي إلى الاب إلا بي" يوحنا ١٤ : ٦

فقلب الله تعالى توّاق إلى أولاده على الأرض لأنه يكنّ لهم حبًا أقوى من الموت، و كفانا آية على هذا الحب العجيب، أن الله قد جمع كل بركات السماء و مزاياها في عطية واحدة إلا و هي عطية الابن الوحيد، تلك العطية التي لا يعبر عنها، فما حياته و موته و شفاعته، و ما خدمة الملائكة، و شفاعة الروح و ما الاب العامل فوق الكل، و ما المخلوقات الروحية و هي في شغل شاغل، ما هذه إلا قوى معبّأة، و وسائل مهيَّأة لخلاص الإنسان خلاصا أبديًا

فلنتأمل في التضحية المدهشة التي بذلت في سبيل خلاصنا، و لنقدر كل ما جادت به السماء، من جهد و عناء، في سبيل إنقاذ الهالكين و استرجاع الضالين إلى حظيرة الاب السماوي، فانه ما من شيء يخلق فينا بواعث قوية، و حوافز شديدة، مثل التأمّل في تضحية المسيح، و هلاّ يحفزنا لخدمة سيدنا و مخلصنا ما اعده من اجر و ثواب لمن يفعلون الصلاح، و هلاّ تستهوينا تلك الأفراح السماوية؟ أو لا نطلب حياة الرفعة و التسامي، و نرغب في ازدياد قوانا و مواهبنا، و اتساع معارفنا و مداركنا؟ أو ليست هذه كلها مما يستحثنا على أن نقدم لخالقنا و فادينا خدمة المحبة القلبية؟

و من جهة أخرى فان كلمة الله تحذنا من خدمة الشيطان و تعلن لنا دينونة الخطية، و قصاصها المحتوم، و ما يحل بمرتكبيها من الانحطاط الأدبي و التدهور الخلقي و ما يلقونه في النهاية من الهلاك الأبدي

أ فلا نقدر رحمة الله؟ و أي شيء كان ممكنًا أن يعمله اكثر مما عمل [14] فلنسع إذن إلى تصحيح موقفنا بالنسبة للذي احبنا حبًا فائقًا عجيبًا، و لننتفع بالوسائط المقدمة لنا، حتى نتغير إلى شبهه، و نعاد إلى عشرة الملائكة العاملين و نصير في وئام و شركة مع الاب و الابن و الروح القدس

التوبة

كيف يتبرر الإنسان عند الله؟ و كف يتزكى المذنب؟ إنما بالمسيح وحده نصير في وفاق مع الله، و اتساق مع القداسة، و لكن كيف يتسنى لنا أن نأتي إلى المسيح؟ كثيرون يسألون هذا السؤال الذي سأله الجمهور في يوم [16] الخمسين إذ "نخسوا في قلوبهم" فصرخوا قائلين "ماذا نصنع" اعمال ٢ : ٢٧ و أول كلمة أجاب بها القديس بطرس كانت قوله "توبوا" اعمال ٢ : ٣٨، و ما لبث بعد ذلك أن قال في موضع آخر : "توبوا ... و ارجعوا لتمحى خطاياكم" اعمال ٣ : ١٩

أما التوبة فهي الحزن على الخطية و الإقلاع عنها، و لا يقلع عنها المرء ما لم يتبين شرها و لا يصير تغيير في الحياة ما لم يرجع عنها رجوعًا باتًا

غير أن الكثيرين يخطئون فهم كنه التوبة، فمنهم من يحزن على خطيئة، بل يحاول إصلاح سيرته إصلاحًا خارجيًا، لأنه إنما يخشى أن خطيته قد تجلب عليه خسارة و ألمًا، و لكنه لم يتب توبة بمعنى الكلمة، لأنه إنما يندب الآلام لا الخطية، فشأنه شأن عيسو الذي بعد أن باع البكورية بكى على ضياع بركاتها إلى الأبد، و حاله حال بلعام الذي اقر بذنبه خوفًا على حياته حين رأى الملاك يعترض طريقه و السيف السليل بيده، و لكنه لم يتب عن الخطية و لم يبغض شرّها، لأنه لم يغير قصده و اتجاهه، و هكذا يهوذا الاسخريوطي فبعد أن اسلم سيده اعترف قائلاً "أخطأت إذ أسلمت دمًا بريئًا" فالذي اكرهه على هذا الاعتراف هو شعوره بالإدانة و انتظاره القصاص، لأن العواقب التي لا بد من أن تأتي بها الخطية ملأت نفسه رعبًا و قشعريرة، و أما الحزن العميق على إنكاره ابن الله، و الأسف الشديد على خيانته قدوس إسرائيل، فكانت نفسه بريئة منهما، و فرعون كان كلما حلت به ضربة من الضربات يصرخ قائلاً "أخطأت، حتى إذا ما استجاب الله لصراخه و دعائه عاد إلى عناده و كبريائه، فهؤلاء جميعهم كانوا يحزنون لا بسبب الخطية ذاتها بل خوفًا من عواقبها المؤلمة

و لكن عندما يستسلم الإنسان لتأثير الروح القدس يحيا الضمير، فيأخذ الخاطئ يدرك شيئًا من عمق الناموس و قدسية الشريعة التي هي قاعدة حكم الله في السماء و على الأرض، و يشرق في نفسه "النور الذي ينير كل إنسان" خارقًا إلى الأعماق و كاشفًا خفايا القلب فيتملك فكر الخاطئ الشعور بالتبكيت [17] و الإدانة، ثم يرى بر الله فيعتريه الرعب من الظهور بذنبه و نجاسة قلبه أمام فاحص القلوب و مختبر الكلى، ثم يرى أيضًا محبة الله، و جمال القداسة، و بهجة الطهارة، فيتوق إلى التطهير و إلى استعادة صلته بالسماء

إن الصلاة التي صلاها داود اثر سقطته لتصوّر لنا الحزن الحقيقي بسبب الخطية، فقد كانت توبته خالصة و عميقة، إذ لم تبد منه أية محاولة لتلطيف جرمه أو لاستصغار ذنبه، و لم تكن الرغبة في النجاة من العقاب الذي هدده هي التي أوحت إليه بهذه الصلاة، و إنما داود كان قد أدرك فداحة تعدّيه، و تبين له ما في نفسه من دنس و نجاسة، فابغض الخطية و كرهها، حتى انه، حين صلى، يلتمس فقط الحصول على الغفران بل طلب أيضًا طهارة القلب، فقد كان مشتاقًا إلى بهجة القداسة، توّاقًا إلى استعادة صلته بالله، كما عبر عن ذلك بقوله : "طوبي للذي غفر إثمه، و سترت خطيته. طوبي لرجل لا يحسب له الرب

خطية، و لا في روحه غش" مزمور ٣٢ : ١ و ٢

ارحمني يا الله حسب رحمتك، حسب كثرة رأفتك امحُ معاصيَّ، اغسلني كثيرًا من إثمي و من" خطيتي طهرني لأني عارف بمعاصيَّ و خطيتي أمامي دائمًا... طهرني بالزوفا فاطهر، اغسلني فابيض اكثر من الثلج... قلبًا نقيًا اخلق فيّ يا الله و روحًا مستقيما جدّد في داخلي، لا تطرحني من قدام وجهك و روحك القدوس لا تنزعه مني، رد لي بهجة خلاصك و بروح منتدبة اعضدني" مزمور ٥١ : ١ - ٣ و ٧ و ١٠ - ١٢

نجّني من الدماء يا الله اله خلاصي، فيسبّح لساني برّك" مزمور ٥١ : ١٤"

فمثل هذه التوبة ليست في مقدورنا، إنها فوق طاقتنا، و إنما نؤتاها من المسيح الذي إذ "صعد إلى العلاء أعطى الناس عطايا" من بينها عطية التوبة

يخطئ كثيرون فهم هذه الحقيقة فيفشلون في الحصول على المعونة التي يريدها لهم المسيح، إذ يظنون انه ليس في إمكانهم أن يأتوا إليه إلا إذا تابوا [18] أولاً، و أن التوبة هي التي تعدّ لهم السبيل للحصول على الغفران، نعم إن التوبة تسبق الغفران، لأنه لا يشعر بحاجته إلى الغفران إلا كل ذي قلب منكسر و روح منسحق، و لكن هل معنى ذلك انه يجب على الخاطئ ألاَّ يأتي إلى المسيح حتى يتوب أولاً؟ و هل نجعل من التوبة عقبة تحول دون وصول الخاطئ إلى مخلصه؟

إن الكتاب المقدس لا يعلم أن الخاطئ يجب أن يتوب قبل أن يستجيب لتلك الدعوة التي يناشدها بها المسيح قائلاً : "تعالوا إلي يا جميع المتعبين و الثقيلي الأحمال و أنا أريحكم" متى ١١ : ٢٨، إذ أن القوة التي تقودنا إلى التوبة الحقيقة إنما هي قوة من المسيح، كما أوضح ذلك القديس بطرس للإسرائيليين في قوله : "هذا رفّعه الله بيمينه رئيسًا و مخلصًا ليعطي إسرائيل التوبة و غفران الخطايا" اعمال ٥ : ٣١، فكما أننا بدون المسيح لا نستطيع الحصول على الغفران كذلك أيضًا لا يمكن الحصول على التوبة بدونه

إن المسيح هو مصدر كل باعث حق، و هو وحده القادر أن يغرس في قلوبنا عداوة للخطية، فكل رغبة، تتولد فينا نحو الحق و الطهارة، و كل ما نحسه من الشعور بذنبنا و اثميتنا إنما هو دليل على أن روحه يعمل فينا

لقد قال المسيح : "و أنا إن ارتفعت عن الأرض اجذب إليَّ الجميع" فيجب أن يعلن المسيح للخطاة مخلصًا يموت عن خطية العالم لأننا، إذ نراه، حمل الله، مرفوعًا على صليب الجلجثة، نأخذ ندرك شيئًا من سر الفداء، فيقتادنا لطف الله إلى التوبة، فالمسيح بموته عن الخطاة أماط اللثام عن حب يفوق الوصف و الإدراك، و كلما تأمل الخاطئ في هذا الحب لان قلبه، و ذابت روحه و انسحقت نفسه فيه

و يحدث أن بعضًا من الناس يستهجنون شر أعمالهم، فيقلعون عنها و هم لا يدرون أن الذي يعمل فيهم و يجذبهم إلى هذا الإصلاح هو المسيح، و لكن الحقيقة هي أن كل مجهود إصلاحي يقومون به عن رغبة خالصة لعمل ما هو حق و صواب إنما هو من تأثير روح المسيح الذي يجتذبهم إليه، إذ يستحث [19] قلوبهم، من حيث لا يشعرون، فتحيا ضمائرهم، و تتغير حياتهم، و إذ يستميلهم المسيح ليلتفتوا إلى الصليب و يروه معلقًا هناك مطعونًا بخطاياهم، تتمكن الوصية من ضمائرهم، فيتجلى لهم شر حياتهم، و تتكشف لهم الخطية المتأصلة في قلوبهم و إذ يدركون شيئًا من بر المسيح و كماله يصيحون قائلين ماهي الخطية حتى يستلزم فداء فرائسها كلّ هذا الاتضاع و كل هذه الآلام لكي لا نهلك بالخطية بل تكون لنا الحياة الأبدية؟

و قد يقاوم الخاطئ هذه المحبة، و قد يرفض أن ينقاد إلى يسوع، و لكنه إذا لم يقاوم فانه لا بد من أن ينجذب إليه، إذ أن معرفة تدبير الخلاص تقوده إلى الصليب فيأتي إليه نادمًا على خطاياه التي سببت كل هذه الآلام لابن الله الحبيب

إن القوة الإلهية التي تعمل في إحياء الطبيعة هي عينها التي تعمل في قلوب الناس و تخلق فيهم شوقًا و هيامًا إلى ما يفتقرون إليه و ما لا يستطيع العالم أن يمدَّهم به، و روح الله هو الذي يتوسل اليهم أن يلتمسوا فقط الأشياء التي تنيلهم السلام و الراحة، أي نعمة المسيح و بهجة القداسة، فبوسائل مرموقة، و غير مرموقة يسعى مخلصنا دائمًا إلى استمالة عقول الناس من ملذات الخطية غير المشبعة إلى البركات الثمينة التي ينالونها فيه، فاني كل من يلتمس عبثًا أن يرتوي من آبار العالم المشققة يوجه الله دعوته قائلاً : "من يعطش فليأت و من يرد فليأخذ ماء حياة مجانًا" رؤيا ٢٢ : ١٧

فانتم يا من تتوق قلوبكم إلى ما هو افضل و أسمى مما يعطيكم إياه العالم، اعلموا أن شوقكم هذا هو صوت الله لضمائركم، و اطلبوا إليه أن يمنحكم التوبة، و يعلن لكم المسيح في محبته الفائقة الوصف، و طهارته الكاملة، ففي حياته قد تمثلت المبادئ التي تتلخص فيها الشريعة الإلهية، اعني المحبة لله و المحبة للإنسان، فالمحبة و الرحمة كانتا جوهر حياة يسوع، حتى أننا إذ نراه نتيقن من نجاسة قلوبنا و نلتمس رحمته الغافرة

قد يكون أننا تملقنا انفسنا، كما راود نيقوديموس نفسه، فنظن أن حياتنا [20] مستقيمة، و أن أخلاقنا قويمة فلا نحتاج إلى أن نتذلل أمام الله تذلل احد عامة الخطاة، و لكن متى اشرق في قلوبنا نور المسيح ظهر لنا مدى نجاستنا و اثرتنا و عداوتنا لله، و عندئذ نعرف أن كل أعمالنا ملوثة بل أن أعمال برنا كثوب عدة، و أن دم المسيح وحده كفيل بتطهيرنا من نجاسة الخطية و بتجديد قلوبنا لكي نكون مشابهين لصورته

فان النفس إذ يتخللها شعاع يسير من مجد الله، و قبس ضئيل من طهارة المسيح، يتضح لها في الم ما بها من لوثة و دنس، و تتكشف لها نقائص الصفات البشرية و اعوجاجها، و تتبين ماهي عليه من فساد في الميول و جحود في القلب و نجاسة الشفاه، و هكذا يعرض أمام عيني الخاطئ ما قد قام به من أعمال الخيانة، بنقضه ناموس الله، و تعطيل أحكام الشريعة، مما يجعله في حالة الم و انسحاق تحت تأثير روح الله الفاحص القلوب، و إذ تتجلى صفات المسيح الطاهرة النقية لمثل هذا الخاطئ فانه يمقت نفسه و يكرهها

إن دانيال حين رأى الرسول السماوي، و شهد ما حفه من المجد و البهاء، بدأ يتملكه شعور قوي و إحساس جارف بانه إنسان ناقص و مخلوق ضعيف، و قد وصف هذا المنظر العجيب فقال :"و لم تبق فيَّ قوتي، و نضارتي تحولت فيَّ إلى فساد، و لم اضبط قوة" دانيال ١٠ : ٨، فان النفس التي يمسها الروح على هذا النحو لا بد من أنها تكرو الأنانية، و تعاف محبة الذات، و تنشد، بواسطة بر المسيح، حياة الطهارة التي توائم شريعة الله، و تتفق مع أوصاف المسيح و سجاياه

و كذلك الرسول بولس فانه قال عن أعماله الظاهرية و سيرته الخارجية : "من جهة البر الذي في الناموس بلا لوم" فيلبي ٣ : ٦، و لكنه عندما تبين طبيعة الناموس الروحية، رأى نفسه خاطئًا، فهو إذ طابق الناموس على حياته مطابقة حرفية ظاهرية، كما يفعل الناس، رأى نفسه بلا لوم، و لكنه حين تأمل في عمق الشريعة المقدسة رأى نفسه كما رآه الله، فانحنى خجلاً و اتضاعًا و اعترف بإثمه و ذنبه قائلاً : "أما أنا فكنت بدون الناموس عائشًا [21] قبلاً، و لكن لما جاءت الوصية عاشت الخطية فمتّ انا" رومية ٧ : ٩، و هكذا عندما عرف روحانية الناموس ظهرت له شناعة الخطية و بشاعتها، و زايله كل ما كان في نفسه من زهو و افتخار

فالله تعالى، وان كان يرى الذنوب تتفاوت في جسامتها، لا يستصغر خطية ما، مهما صغرت في اعين الناس، لأن حكم الإنسان حكم جزئي ناقص و أما الله فيقدر الأمور على حقيقتها، فالناس يحتقرون السكير مثلاً و ينذرونه بسوء المغبة و المصير، في حين انهم يتغاضون عن زجر أهل الكبرياء و الأنانية

و الطمع، و هي الخطايا التي يمقتها الله بنوع خاص، لأنها تنافي طبيعته السمحة و تضاد المحبة الخالصة التي تكوّن جو العالم الذي لم تصل إليه الخطية، فقد يشعر مرتكب إحدى الخطايا الجسيمة بالخزي و العار، و يحس بافتقاره إلى البر و احتياجه إلى المسيح، و لكن المتكبر لا يشعر بحاجة ما، فيحول كبرياؤه دونه و دون المسيح و يحرمه من بركات الخلاص التي جاء يسوع لكي يمنحه إياها

فان ذلك العشار المسكين الذي صلى قائلاً : "ارحمني أنا الخاطئ" لوقا ١٨ : ١٣، اعتبر نفسه شريرًا أثيمًا، و هكذا كان يراه غيره أيضًا، و لكنه شعر بحاجته، فجاء بذنبه و عاره إلى الله، ملتمسًا رحمته تعالى، و فتح قلبه لتأثيرات روح الله القدوس كيما يجدده و يغيره، و سلم نفسه للنعمة القادرة أن تخلصه و تحرّره، و أما الفرّيسي فكانت صلاته مملوءة بروح الزهو و الافتخار، مما دلّ على أن قلبه كان مغلقًا دون تأثير الروح القدس فانه بسبب ابتعاده عن الله لم يستطع أن يشعر بنجاسته، و إذ لم يشعر بحاجته مضى دون أن ينال شيئًا

و إذا تبينت ما انت عليه من إثم و خطية، فلا تنتظر ريثما تصلح ذاتك، و كم من الناس يظنون انهم ليسوا أهلاً لأن يأتوا إلى المسيح. ألعلك تحاول أن تصلح نفسك باجتهادك؟ و "هل يغير الكوشي جلده و النمر رقطه، فانتم أيضًا تقدرون أن تصنعوا خيرًا أيها المتعلمون الشر" ارميا ١٣ : ٢٣، فإنما [22] معونتنا هي من الله فقط، فيجب ألا نتطلع إلى فرص افضل، و يجب ألا ننتظر حتى نصير احسن تطبعًا و تخلقًا، أو اشدّ اقتناعًا و توثقًا، فإننا من انفسنا لا نستطيع أن نفعل شيئًا، بل يجب أن نأتي إلى المسيح كما نحن

فلا يخدعنَّ احد نفسه و يحسب أن الله من فرط محبته و كرم رحمته سيخلص أخيرًا حتى رافضي نعمته. إن الخطية لمرض عضال، لا يدرك

استحالة شفائه إلاّ من نظر إليه في نور الصليب، فعلى الذين يتكلون على رحمة المولى و يقولون انه تعالى من جوده لا يهلك الخاطئ، أن يتأملوا مليًا في الجلجثة، فلأن المسيح لم يجد سبيلاً لخلاص الإنسان من قوة الخطية و نجاستها و لم يكن في إمكانه أن يعيد له الحياة الروحية، فالشركة مع القديسين، الا [23] بهذه التضحية العظمى، أخذ جرم الخطية على نفسه و مات عوضًا عن الخاطئ فتشهد محبة ابن الله و تخبر تضحيته العظمى بفداحة الخطية، وتعلنان أن لا أمل بالنجاة منها و من سلطانها، و لا رجاء بالحصول على حياة أبدية إلا بخضوع النفس للمخلص يسوع خضوعا كاملاً

و يحاول أحيانًا الذين يصرّون على خطاياهم، أن يبرّروا انفسهم بقولهم : "نحن مثل أولئك القوم الذين يدعون مسيحيين، فانهم ليسوا بأفضل منا تضحية و نكرانًا لذواتهم، و ليسوا بأكثر منا حذرًا و تعقلاً، بل هم مثلنا يحبون اللهو و التدلل" و هكذا يتعللون بأخطاء الآخرين، ممن يدعون مسيحيين، و لكن خطايا الآخرين و نقائصهم لا يمكن أن تبرّر إنسانًا، لأن الله لم يعطنا مثالاً بشريًا ناقصًا، و إنما أعطانا ابنه القدوس لكي نتمثل به، فأولئك الذين ينعون على المسيحيين سلوكهم الخاطئ، هم جديرون بان يظهروا في حياتهم سلوكا افضل، و مثلاً أسمى و أنبل، لأنه إذا كانت لديهم فكرة سامية كهذه، بشأن ما يجب أن تكون عليه حياة المسيحي، أفلا تكون خطيتهم اكبر و اعظم، بلى، لأنهم عرفوا الحق و لم يتبعوه

و حذار من أن تؤجل أو تسوّف الإقلاع عن خطاياك، بل عليك أن تبادر إلى طلب تطهير قلبك بواسطة يسوع، فقد اخطأ هذه الحقيقة كثيرون، فحلت بهم الخسارة الأبدية، و لست أطيل الكلام في هذا المقام عن قصر الحياة و عدم تحققنا من نهايتها، فللتأجيل خطر اشد و أدهى مما تتصوّر، لا يفطن إليه الناس كثيرًا، و هو أننا بر كوننا إلى التأجيل، نرفض توسلات روح الله القدوس، و نؤثر أن نبقى في الخطية على أن نسلم انفسنا لله، فمن هنا يتأتى الخطر، ذلك لأن التساهل مع الخطية، مهما بدت لنا صغيرة، يعرضنا لخسارة لا حد لها، فنحن إن لم نقهرها، قهرتنا و أفضت بنا إلى الهلاك

كان كل من آدم و حواء يقنع نفسه، بأن أمرًا يسيرًا كالأكل من [24] الشجرة المنهى عنها لا يمكن أن تترتب عليه نتائج مروعة و عواقب وخيمة، كالتي حذّرهم منها الله، و لكن هذا الشيء اليسير إنما كان اعتداء على ناموس الله، ذلك الناموس الثابت المقدس، و قد أدّى هذا الاعتداء إلى فصل الإنسان عن الله، و تدفق عوامل الموت و الشقاء إلى هذا العالم بكيفية تفوق كل وصف، و منذ ذاك الحين أخذت صيحات الحزن و العويل، تتصاعد من جيل إلى جيل، و صارت الخليقة كلها تئن و تتمخض، نتيجة لتمرّد الإنسان و عصيانه، و لقد شعرت السماء نفسها بنتائج عصيان الإنسان، و شقه عصا الطاعة على الله تعالى، و إن الجلجثة لتذكرنا دائمًا بتلك التضحية العجيبة التي اقتضاها التكفير عن الاعتداء على ناموس الله، فلا يجب أن ننظر إلى الخطية كانها أمر تافه و هين، فان كل ما نأتيه من أعمال التعدّي، و كل ما نبديه من إهمال أو رفض لنعمة المسيح، لا بد من أن يكون له رد فعل في نفوسنا، إذ تتحجر قلوبنا، و تنحط مداركنا، فلا نصبح فقط اقل ميلاً لتلبية دعوة المسيح، بل نصير أيضًا اقلّ مقدرة على الخضوع لروح الله القدوس، و الاستجابة لتوسلاته الرقيقة

غير انه يوجد أناس يحاولون تهدئة ضمائرهم المضطربة بظنهم انهم قادرون على أن يغيروا مسلكهم الشرير متى شاؤوا، و انه في استطاعتهم أن يغيروا مجرى حياتهم حتى بعد استخفافهم بنداءات الرحمة، و إصرارهم على مقاومة روح الله القدوس، و حتى بعد انحيازهم إلى جانب الشيطان، و لكن هذا كله لا يمكن أن يتم بمثل هذه السهولة، إذ تكون أخلاقهم قد تكيفت تمامًا، على مرّ الزمن، بما حصلوا عليه من الاختيار و التدريب، و تشكلت بممارسة العادات و التجاريب، حتى ليتعذر على الكثيرين منهم أن يتقبلوا سمة المسيح

فان أية خصلة من الخصال الخاطئة، أو أية رغبة من الرغبات الآثمة، إذا تركت و شأنها، كافية لان تضعف تأثير الإنجيل، و تبطل مفعوله. و إن كل تساهل نبديه نحو الإثم، من شأنه أن يزيد النفس أعراضًا عن الله [25] و صدودًا عن الحق. فالإنسان الذي تبدو عليه مظاهر الجحود و الكفر، و التبلد و عدم الاكتراث للحق الإلهي، إنما هو يحصد ما قد زرع، و لا يوجد بين دفّتي الكتاب المقدس تحذير يدعونا إلى الخوف من الاستخفاف بالشر مثل قوله : "الشرير تأخذه آثامه، و بحبال خطيته يمسك" امثال ٥ : ٢٢

إن المسيح على أتم استعداد لتحريرنا من الخطية، و لكنه لا يفرض علينا ذلك جبرًا و قسرًا، فإذا كانت أرادتنا ـ بسبب إصرارنا على الخطية و تمادينا فيها ـ قد أصبحت تميل بكليتها إلى فعل الشرّ، و إذا كنا مصرين على عدم قبول نعمته، فماذا عساه أن يفعل بنا بعد ذلك؟ فنحن إنما نهلك انفسنا بإصرارنا على رفض محبته، "هو ذا الآن وقت مقبول، هو ذا الآن يوم خلاص. فان سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم"

إن الإنسان ينظر إلى العينين و أما الرب فانه ينظر إلى القلب" ١ صموئيل ١٦ : ٧. نعم، انه ينظر" إلى القلب البشري الذي تصطرع فيه شتى العواطف و الأحاسيس، القلب الجائل التائه، المملوء بكل زيف و نجاسة، فيعلم بواعثه و نياته و مقاصده. فتوجه إليه أيها الخاطئ، و اعرض أمامه نفسك بكل ما فيها من تلوث و تلطخ، و اكشف خفاياها أمام عينيه التي ترى كل شيء، و اصرخ مرددًا قول المرنم : "اختبرني يا الله و اعرف قلبي. امتحني و اعرف أفكاري. و انظر إن كان فيّ طريق باطل و اهدني طريقًا أبديا" مزمور ١٣٩ : ٢٣ و ٢٤

كثيرون يقبلون الدين عقليًا، و يحملون صورة التقوى، في حين أن القلب غير متجدد، فلتكن طلبتك : "قلبًا نقيًا اخلق فيّ يا الله و روحًا مستقيما جدد في داخلي" مزمور ٥١ : ١٠. و لكن كن أمينًا لنفسك، باذلاً كل جد و اهتمام، و تشبّث و إصرار، كما لو كنت مشرفًا على الهلاك، فهذا أمر يجب تسويته، و يجب أن يحل بينك و بين الله تعالى بصفة نهائية لأن التعلق برجاء وهمي يكفي وحده لاهلاكنا

و ادرس كلمة الله بروح الصلاة، فان فيها شريعته، و حياة المسيح، و مبادئ "القداسة التي بدونها لن يرى احد الرب" عبرانيين ١٢ : ١٤، فضلاً [26] عن أنها تقنعنا بالخطية و تعلن لنا طريق الخلاص بوضوح و جلاء، فانتصت لها، باعتبارها صوت الله الذي يخاطب نفسك

و متى أدركت جسامة خطيتك، و تجلت لك نفسك على حقيقتها، فلا تستسلم لليأس و القنوط فإنما لأجل الخطاة فقط قد جاء المسيح من السماء، فيا له من حب فائق العجب! إذ أننا لا نصالح الله، بل هو الذي "كان في المسيح، مصالحًا العالم لنفسه" ٢ كورنثوس ٥ : ١٩، فان الله بحنو و محبة هو الذي يستعطف أولاده الشاردين، ليردهم عن زيغهم و ضلالهم، و ليس من اب بشري يتسع صبره و حلمه لاحتمال غلطات أولاده و أخطاءهم، كما يفعل الله مع الذين يحاول إنقاذهم، و من مثل الله في عطفه و حنوه على الخاطئ الأثيم؟ و هل من شفاه بشرية سكبت هذه التوسلات الرقيقة التي بها يناشد الله الإنسان الضال؟ اجل، إن كل مواعيده و تحذيراته إن هي إلا تنسمات محبته التي لا ينطق بها

عندما يأتي الشيطان و يوسوس إليك انك خاطئ، انك خاطئ جدًا، تطلع إلى فاديك و تحدث عن استحقاقاته، فان التطلع إلى نوره مما يساعدك، ثم اعترف بخطيتك، و اجحد عدو الخير، و قل له : "إن المسيح قد جاء إلى العالم ليخلص الخطاة" ١ تيموثاوس ١ : ١٥. لما سأل المسيح سمعان سؤالاً فيما يختص بمديونين كان احدهما مدينًا بمبلغ زهيد، و الآخر كان مدينًا بمبلغ جسيم جدًا و لكن السيد سامح الاثنين، فأيهما يكون اكثر حبًا لسيده، أجاب سمعان قائلاً : "أظن الذي سامحه بالأكثر" فنحن كنا من أردإ الخطاة، و لكن المسيح مات لكي نوهب الغفران، و إن استحقاقات ذبيحته و تضحيته لتكفي للتشفع فينا أمام الآب، و الذين سامحهم الله بالأكثر سيحبونه اكثر، و سيكونون اقرب الناس إلى عرشه، ليسبحوه على محبته العظمى، و تضحيته التي لا حد لها. فإننا، كلما ازددنا إدراكا لمحبة الله، تحققنا اكثر فاكثر حقيقة الخطية و طبيعتها، و عرفنا أنها خاطئة جدًا، حتى إذا ما أدركنا عمق محبته، و اطلعنا على مدى اتضاعه و مبلغ تضحيته، انفطرت قلوبنا حزنًا و تأسفًا، و ذابت أفئدتنا حنوًا و تعطفًا [27]

الاعتراف

من يكتم خطاياه لا ينجح و من يقرّ بها و يتركها يرحم" امثال ٣٨ : ١٣. إذن فما يشترطه الله" علينا، لكي يمنحنا رحمته و يهبنا عفوه و غفرانه، سهل و عادل و معقول، فهو لا يطلب منا أمرًا يسوءنا أو يكدرنا، و لا يفرض علينا تجشم الأسفار و ركوب الأخطار لأداء حج أو بلوغ مزار، و لا يأمرنا بان نقوم بأعمال تقشفية، و ممارسات تعذيبية، تكفيرًا عما اقترفناه من تعد و عصيان، و إنما كل ما يطلبه الله منا لكي يشملنا برحمته هو الاعتراف بخطايانا و الإقلاع عنها

يقول الرسول : "اعترفوا بعضكم لبعض بالزلاّت. و صلوا بعضكم لأجل بعض لكي تشفوا"، يعقوب ٥ : ١٦، فلنعترف بخطايانا لله، فهو وحده قادر على أن يهبنا الغفران، و لنعترف أيضًا بعضنا لبعض بالزلات، فإذا بدرت منك إساءة نحو صديق لك أو جار، فمن حقه عليك أن تقرّ له بخطإك كما [28] انه من الواجب عليه هو أيضًا أن يرضى و يصفح. ثم بعد ذلك عليك أن تلتمس عفو الله و غفرانه، لان ذلك الأخ الذي اجترأت عليه و جرحته إنما هو ملك الله، فان أضررت به، فانت تخطئ إلى الخالق، و متى أتممت اعترافك لله، و أقررت بذنبك لأخيك، فان القضية تصبح أمام الوسيط الحقيقي و رئيس الكهنة الأعظم الذي هو "مجرب في كل شيء مثلنا، بلا خطية"، "قادر أن يرثي لضعفاتنا"، عبرانيين ٤ : ١٥، و قادر أن يطهرنا من كل وصمة إثم. عبرانيين ٧ : ٢٥

إذن فأولئك الذين لم يذللوا نفوسهم أمام الله، معترفين بذنبهم، لم يقوموا بعد بأول شرط من شروط قبولهم، لأننا إن كنا لم نتب إلى الله توبة لا رجعة عنها و لا انتكاص، و إن كنا لم نعترف له بخطايانا بتذلل و انكسار، و لم ننظر إلى الإثم نظرة مقت و استنكار، فلا نكون حتى الآن قد طلبنا حقًا الصفح و الغفران، و إن كنا لم نطلب، فنحن لم نجد بعد سلام الله، فانه لا يوجد سبب لعدم نيلنا غفرانًا عن خطايانا الماضية سوى أننا غير راغبين في التذلل أمام الله و الإذعان لكلمة الحق، فان الله تعالى قد أعطانا تعليمات صريحة في هذا الشأن تبين لنا أن الاعتراف بالخطايا، سواء أكان بصفة فردية أم علنية، يجب أن يصدر عن القلب، و يجب أن يعترف به الفم و يردده اللسان، لان الاعتراف ليس مجرد لغو أو كلام يلقى جزافًا، و ليس هو مجرد تصريح ينتزع من صاحبه انتزاعًا، دون أن يدرك جسامة خطيته، و يشعر بشدة نفوره منها و استنكاره لها، و إنما الاعتراف الصحيح الذي يجد سبيلاً إلى رحمة الله و عفوه، هو الذي يصدر من أعماق النفس و يصعد من صميم القلب، كما يقول المرنم : "قريب هو الرب من المنكسري القلوب و يخلص المنسحقي الروح" مز ٣٤ : ١٨

فالاعتراف الحقيقي هو الذي يتسم بالتحديد، و يتناول الإقرار بالخطايا على وجه التخصيص، و هذه الخطايا قد تكون من النوع الذي يجب عرضه أمام الله فقط، و قد تكون غلطات يجب أن نعترف بها أمام من الحقنا بهم [29] ضررًا و سوءًا، و قد تكون أيضًا ذات صفة علنية، فيجب أن نعترف بها جهارًا، و لكن في كل الحالات يجب أن يكون الاعتراف محددًا و منصبًا على الاعتراف بالخطية التي ارتكبناها

ففي زمن صموئيل ضل الإسرائيليون عن الله، فقدوا إيمانهم به، و أخذوا يشكون في قدرته على حمايتهم، و الذود عن كيانهم، و الدفاع عن قضيتهم، حتى تحولت قلوبهم عن الحاكم الأعظم الذي بيده

مقاليد الكون باسره رغبة منهم في أن يكون لهم ملك اسوة بمن حولهم من الأمم و الشعوب، و قد تم لهم ما أرادوا و لكنهم باؤوا بالفشل و الخيبة، و لم يتذوقوا طعم السلام و الاستقرار حتى أتوا إلى الله و اعترفوا بما اقترفوه من جحود و إنكار، إذ قالوا لصموئيل : "صلّ عن عبيدك إلى الرب إلهك حتى لا نموت لأننا قد أضفنا إلى الجميع خطايانا شرّا بطلبنا لأنفسنا ملكًا" صموئيل ١٢ : ١٩، فالإسرائيليون إذ اقتنعوا بان نكرانهم للجميل هو الذي أقصاهم عن الله، و أدّى إلى فصم عرى الشركة بينه و بينهم، لم يروا مندوحة عن تحديد اعترافهم بذكر هذه الخطية بالذات، إذ قالوا : "لأننا قد أضفنا إلى الجميع خطايانا شرًا بطلبنا لأنفسنا ملكًا"

غير أن الاعتراف لا يكون مقبولاً عند الله، إلا إذا كان مقترنًا بالتوبة و الإصلاح، فيجب أن تتناول الحياة تغييرات ظاهرة، و يجب العمل على نبذ كل شيء يسيء إلى الله تعالى، و لن يتأتى كل هذا إلا نتيجة لحزن حقيقي و توبة خالصة، و أما الإصلاح الذي يتعين علينا أن نقوم به من جانبنا فقد بيَّنه النبي اشعياء جليًا و واضحًا في قوله : "اغتسلوا تنقوا، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني، كفوا عن فعل الشر، تعلَّموا فعل الخير، اطلبوا الحق، انصفوا المظلوم، و اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة"، اشعياء ١ : ١٦ و ١٧ و كذلك نوّه به حزقيال في قوله : "إن ردّ الشرير الرهن و عوّض عن المغتصب، و سلك في فرائض الحياة بلا عمل إثم فحياة يحيا لا يموت" [30] حزقيال ٣٣ : ١٥. و أيضًا فصّله الرسول بولس في قوله : "فانه هو ذا حزنكم هذا عينه بحسب مشيئة الله، كم انشأ فيكم من الاجتهاد بل من الاحتجاج بل من الغيظ بل من الخوف بل من الشوق بل من الغيرة بل من الانتقام. في كل شيء أظهرتم أنفسكم أبرياء في هذا الأمر" ٢ كورنثوس ٧ : ١١

فالخطية متى أماتت الشعور الأدبي، تجعل فاعل الإثم لا يرى ما في صفاته من نقائص و عيوب، و لا يتحقق فداحة الشر الذي ارتكبه، فما لم يخضع لقوة الروح القدس المقنعة، يظل غير مدرك لخطيته إدراكًا كاملاً، و تكون اعترافاته خالية من روح الجد و الإخلاص، إذ يحاول عند كل اعتراف أن يلتمس لنفسه الأعذار، ناسبًا أخطاءه إلى الظروف التي أحاطت به، و التي لولاها لما ارتكب مثل هذا الذنب الذي يلام عليه

فان آدم و حواء بعد أن أكلا من الشجرة المنهى عنها، شعرا بالخزي و العار و أحسَّا بالرهبة و الخوف، فكان جل همهما في مبدإ الأمر منصرفًا إلى تلمُّس وسيلة الاعتذار عن خطيتهما، و التخلص من حكم الموت الرهيب، فلما بدأ الله يسألهما عن الخطية التي اقترفاها، أخذ آدم ينحي باللائمة على الله تعالى و على المرأة، إذ قال : "المرأة التي جعلتها معي أعطتني من الشجرة فأكلت" تكوين ٣ : ١٢، و كذلك المرأة بدورها أخذت تنحي باللائمة على الحية، إذ قالت : "الحية غرّتني فأكلت" تكوين ٣ : ١٣، فكأني بحواء تعترض على الله تعالى قائلة لماذا خلقت الحية و لماذا تركتها تتسلل إلى جنة عدن؟ فهي تلقي التبعة على الله سبحانه، و تجعله مسؤولاً عن زلتهما و سقطتهما، و لا عجب في ذلك فان روح التنصل من المسؤولية و تبرئة انفسنا تولدت في الأصل عند ابليس الملقب بأبي الكذاب و منه سرت إلى كل ذرية آدم و حواء، فمثل هذه الاعترافات ليست من إيحاء الروح الإلهي، و بالتالي فهي غير مقبولة البتة عند الله، أما التوبة الصحيحة فإنها تجعل الإنسان يحمل ذنبه بنفسه، و يقرُّ به في غير خداع و نفاق، كما فعل ذلك العشَّار الذي لم يجرؤ أن يرفع وجهه [31] نحو السماء، بل قرع على صدره و صرخ قائلاً : "اللهم ارحمني أنا الخاطئ" فعاد إلى بيته مبررًا، و هكذا يتبرر كل من اعترف بذنبه لان يسوع نفسه يتشفع بدمه في كل نفس تائبة

و إن الأمثلة الواردة في كلمة الله بشأن التوبة الحقيقية توضح لنا روح الاعتراف الصحيح الخالي من كل تعلل و تنصل، و تبين لنا الإقرار الخالص الذي لا يشوهه البر الذاتي، فبولس، مثلاً، لم يحاول قط أن يبرئ نفسه مما اقترفه ضد الكنيسة، بل هو يصور خطيته كأشد ما تكون اسودادًا و اظلامًا دون أن

يحاول استصغار ذنبه، إذ يقول : "و فعلت ذلك أيضًا في أورشليم، فحبست في سجون كثيرين من القديسين، آخذًا السلطان من قبل رؤساء الكهنة، و لما كانوا يقتلون ألقيت قرعة بذلك، و في كل المجامع كنت اطردهم إلى المدن التي في الخارج" اعمال ٢٦ : ١٠ و ١١، بل و لم يتردد أن يقول : "صادقة هي الكلمة و مستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا" ١ تيموثاوس ١ : ١٥

اجل، فإنما بالتواضع و الانكسار، و التوبة و الاستغفار يستطيع الخاطئ أن يقدر شيئًا من محبة الله، و شيئًا مما انفق في الجلجثة، فيأتي إلى الله كما يأتي إلى أبيه، معترفًا بكل ذنوبه، و تائبًا عن كل خطاياه، لأنه مكتوب : إن اعترافنا بخطايانا فهو أمين و عادل حتى يغفر لنا خطايانا و يطهرنا من كل إثم" ١ يوحنا ١ : ٩

التسليم

بهذا وعدنا الله : "تطلبونني فتجدونني إذ تطلبونني بكل قلبكم" ارميا ٢٩ : ١٣، فان لم نطلب الله بكل قلوبنا لا نجده، و إن لم نذعن له إذعانًا كاملاً لا نتغير عن شكلنا لنكون مشابهين صورته و مثاله، لأننا بالطبيعة أعداء الله، و قد وصفنا الروح القدس باننا "أموات بالذنوب و الخطايا" افسس ٢ : ١، و شخّص حالتنا فقال : "كل الرأس مريض و كل القلب سقيم... ليس فيه صحة" اشعياء ١ : ٥ و ٦، فنحن ممسوكون في فخاخ ابليس "مقتنصون لإرادته" تيموثاوس ٢ : ٢٦، غير أن الله تعالى يريد شفاءنا و يرغب في تحريرنا، أمران يستوجبان تغييرًا شاملاً في صفاتنا و تجديدًا كاملاً في طبيعتنا و لا يصيران إلا بتسليم قلوبنا لله تسليمًا تامًا

نعم، إن محاربة الأثرة فينا هي اعظم معركة دارت رحاها أبدًا، لان تسليم النفس لله و إخضاع المشيئة لمشيئته يستلزمان حربًا عوانًا و صراعًا عنيفًا، و النفس لا تتجدد في القداسة ما لم تخضع لربها خضوعًا مطلقًا

غير أن سياسة الله ليست، كما يريد أن يصورها لنا الشيطان، مؤسسة [33] على تحكم غاشم يتطلب منا تسليما أعمى، يناشد الله عقولنا و يهب بضمائرنا إذ يدعونا قائلاً، "هلمّ نتحاجج" اشعياء ١ : ١٨، فهو تعالى يأبى أن تتعبد له قسرًا و اضطرارًا، لان استعمال الوسائل القهرية و الأساليب الجبرية لما يعيق تقدمنا الفكري و تحسننا الخلقي و يجعل منا آلة صماء، فما لغرض كهذا خلقنا الله، بل ليسمو الإنسان الذي توّج به عمل الخلق إلى أقصى مراتب الرقي و أسمى غايات التقدم، جاعلاً أمامنا ذروة الطوبى التي نبلغها بنعمته، و داعيًا إيانا أن نبادر بتسليم انفسنا له لكي يعمل فينا إرادته و يتمم فينا مشيئته فالأمر مفوَّض لنا أن نختار بين بقائنا في عبودية الخطية، و بين التمتع بحرية مجد أولاد الله بنعمته تعالى

إن تسليم ذواتنا لله ليستلزم حتمًا أن نتنحى عن كل شيء من شأنه أن يفصلنا عنه، كما أوضح ذلك يسوع في حديثه مع تلاميذه، إذ قال : "فكذلك كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لي تلميذًا" لو ١٤ : ٣٣، فكل شيء يحوّل القلب عن الله يجب نبذه و تركه، فالمال صنم يتعبد له كثيرون ممن يتهافتون على الثراء، و محبة المال هي السلسلة الذهبية التي يستأسرهم الشيطان بها، و آخرون يتعبدون للشهرة و الجاه العالمي، و آخرون يتعبدون لصنم الدعة و الراحة و التحلل من التبعات و الفرار من المسؤوليات، فكل هذه أغلال يجب تحطيمها، لأننا لا نقدر أن نجزئ حياتنا بين الله و العالم، بل لا نكون أولادًا لله حتى نسلم انفسنا تسليمًا تامًا، و من الناس من يدعون بانهم يعبدون الله، بينما هم لا يعتمدون إلا على برهم الذاتي، فهم يريدون أن يحفضوا الناموس، و يمارسوا حياة الفضيلة، و يحصلوا على الخلاص، بمحض اتكالهم على جهودهم الشخصية، دون أن يكون الباعث على ذلك كله محبة المسيح، فمثل هذه الديانة لا تغني فتيلاً، و لكن متى حل المسيح في حياتنا، امتلأت قلوبنا بمحبته، و اغتبطت نفوسنا بعشرته، فلا نلبث أن ننسى ذواتنا، و نجعله هو مركز تفكيرنا و محور [34] تأملاتنا، فمن ثم تكون بواعثنا كلها مدفوعة بمحبة المسيح، لان الذين تحصرهم محبة الله لا يعودون ينظرون إلى الحياة المسيحية كانها فرض يؤدى أو واجب يقضى، لا يحاولون أن يظفروا منها بأكبر مغنم و أقل

مغرم، بل تكون غايتهم القصوى هي التشبه بالمسيح، و العمل على مشيئته و إرادته، مبدين من الاهتمام ما يتفق و الغرض الذي ينشدونه، فان الاعتراف بالمسيح، إذا لم يكن صادرًا عن حب عميق فانه لا يعدو أن يكون مجرد شقشقة لسانية، و ممارسات شكلية، و حياة كلها عبودية

أفتشعر بانه كثير عليك أن تضحي بكل شيء لأجل المسيح؟ إذن فسلْ نفسك : ماذا أعطى المسيح لأجلي؟ انه بذل كل شيء لفدائنا، و وقف علينا حبه و حياته و آلامه. أفنضنّ عليه بقلوبنا، و نحن لسنا أهلاً لمحبة عظمى كهذه؟ و إنما لكوننا نتمتع في كل لحظة من لحظات حياتنا بالاشتراك في بركاته، صرنا لا ندرك تمامًا عمق الجهل و البؤس اللذين انقذنا منهما، و هل نستطيع أن نراه مطعونًا بخطايانا، ثم نزدري محبته و تضحيته؟ و هل نستطيع أن نرى تواضعه الذي لا حدَّ له ثم نتذمر لأنه لا سبيل إلى دخول الحياة إلا بالصراع و إذلال النفس؟

فكم من أناس ذوي قلوب متكبرة يتساءلون قائلين : و ما هي ضرورة التذلل و الاتضاع، و الحزن و التوبة؟ و هل يلزم أن نمارس كل هذه الأمور حتى يؤكد الله لنا قبولنا؟ و ردًا على هذا السؤال لا يسعني إلا أن أشير إلى المسيح نفسه الذي كان منزهًا عن الخطية، فضلاً عن كونه رئيس السماء، و لكنه إذ ناب عن جنسنا الأثيم "صار خطية لأجلنا" و "أحصي مع أثمة، و هو حمل خطية كثيرين و شفع في المذنبين" اشعياء ٥٣ : ١٢

و لكن ما هو هذا "الكل" المطلوب منا أن نقدمه لله؟ انه القلب، و ما هو إلا قلب ملوث بالإثم و الخطية يريد المسيح أن يطهره بدمه الزكي، و يخلصه بمحبته الفائقة! و مع ذلك فالناس يستصعبون أن يعطوا هذا "الكل" لله، فوا خجلتاه و وا حسرتاه! [35]

على أن الله تعالى لا يطلب منا أي شيء يرى من مصلحتنا أن نستبقيه لأنفسنا، لأنه في كل ما يعمله و يجريه، إنما يضع نصب عينيه خير خلائقه و صالح بنيه، فيا ليت أولئك الذين لم يختاروا المسيح بعد، يدركون أن لديه أشياء فضلى يريد أن يمنحهم إياها، و أن هذه الأشياء تفوق كثيرًا ما ينشدونه هم لأنفسهم، فان الإنسان حين يفكر ضدّ مشيئة الله، و يعمل ضد إرادته تعالى، إنما يسيء إلى نفسه و يجحف بصالحه، لان الفرح الحقيقي لا يتأتى بالسير في الطريق المحظور، و الخروج على وصية الله الذي يعرف تمامًا كل ما يؤول لخير خلائقه، فان طريق الإثم و التعدي إنما ينتهي بنا إلى البؤس و التردي

و انه لمن الخطإ أن نظن أن الله تعالى يرضى بان يرى أولاده يتألمون، لان السماء جميعها يهمها إسعاد الإنسان، كما أن أبانا السماوي لا يسد مسالك السعادة أمام احد من خلائقه، و إنما هو يهيب بنا أن نقلع عن الانغماس في اللذّات التي تفضي بنا إلى اليأس و الشقاء، فضلاً عن أنها توصد أمامنا باب السعادة، و تحول دون دخولنا السماء، كذلك يسوع الفادي على استعداد لان يقبلنا كما نحن، على ما نحن عليه من ضعف و نقص و عوز، و هو لن يقتصر فقط على تطهيرنا من الخطية و منحنا الفداء بدمه، بل هو أيضًا على استعداد لان يشبع رغائب كل الذين يلبون دعوته و يحملون نيره، إذ هو يريد أن يمنح الراحة و السلام لكل من يأتي إليه ملتمسًا خبز الحياة، و إنما هو يتطلب منا أن نقوم بتلك الواجبات التي تقود خطواتنا إلى أوج السعادة و الهناء، مما يستحيل بلوغه كل من يخالف وصية الله، و على ذلك فان "حياة البهجة الحقيقية لن تتهيأ إلا إذا تصوّر المسيح فينا "رجاء المجد

و لربَّ سائل يقول : كيف اسلم نفسي لله فانت إذًا راغب في تسليم نفسك و لكنك تشعر بعجزك الروحي و قصورك الأدبي، إذ ترى نفسك مستعبدًا للشكوك المقلقة، و مستأسرًا للعادات الشريرة، متشبثًا بحبال خطاياك، حتى صارت عهودك محلولة، و عزيمتك مفلولة، مما جعلك ترتاب من إخلاصك، و تشكك في إمكانية قبولك لدى الله، و مع ذلك، فلا يجب أن تقنط أو [36] تيأس، لان كل ما يلزمك في مثل

هذا الموقف، هو أن تفهم قوة الإرادة و تعرفها على الوجه الصحيح، فهي عبارة عن القوة الضابطة التي أوجدها الله في طبيعة الإنسان، و هي القوة التي بها نقرر، و بها نختار، فيتوقف مصيرك على عمل الإرادة، و على حسن توجيهها و استخدامها، فان كنت عاجزًا عن تجديد قلبك و تغيير عواطفك، فما انت بعاجز عن أن تختار، و ما انت بقاصر عن أن تسلم لله نفسك و إرادتك، و متى سلمت له ذاتك فانه لا يلبث أن يعمل في قلبك لان تريد و أن تعمل من اجل المسرة، و عندئذ تصبح طبيعتك تحت سيطرة الروح، و يصبح المسيح محور تفكيرك، و قبلة عواطفك و شعورك

و لئن تكن الرغبة في الحصول على الصلاح و القداسة هي عين الصواب، إلا انه يجب أن لا نقف في جهادنا عند حد الرغبة فقط، إذ أن كثيرين سيهلكون لان كل همهم كان مقتصرًا على التعلل بالرغبة و الأمل، دون أن يسلموا انفسهم لله، و يختاروا المسيح نصيبًا لهم

و لكنك أذا أحسنت استخدام إرادتك، و سلَّمت نفسك للمسيح، فلا بد من أن يشمل حياتك تغيير كلي، و تصبح متحالفًا مع القوات السماوية التي تفوق كل رياسة و سلطان، فعندئذ يمدك الله بكل قوة علوية، ليحفظك و يثبتك، و هكذا بخضوعك الدائم لله، تستطيع أن تحيا حياة جديدة، حياة الإيمان العامل بالمحبة 37]]

الإيمان

إذا أحيا الروح القدس ضميرك أدركت شيئًا من شرّ الخطية و قوَّتها و جرمها و ويلاتها، فعافتها نفسك، لأنك شعرت بانها قد فصلتك عن الله و استعبدتك بسلطانها، و كلما حاولت أن تتحرر منها تأكدت عجزك و تثبت قصورك، و عرفت أن بواعثك دنسة و قلبك نجيس و حياتك مليئة من الأثرة، مفعمة بالخطية، فأصبحت الآن تتوق إلى الغفران و تشتاق إلى التطهير و العتق، [38] فما عساك أن تفعل لكي تصير في وفاق مع الله و تتصف بصفاته؟

إن مسيس حاجتك هو إلى السلام، سلام الله الناشئ عن غفران الخطية و انكساب المحبة في نفسك، و لا تقدر أن تشتري هذا السلام بالمال و لا تستطيع أن تناله بالعقل و لا أن تدركه بالحكمة، و مجهوداتك تخيب املك في الحصول عليه، و مع ذلك هو في طاقة يديك، لان الله قد وهبه لك مجانًا "بلا فضة و بلا ثمن"، اشعياء ٥٥ : ١، كما قال أيضًا "إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج و إن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف" اشعياء ١ : ١٨، "و أعطيكم قلبًا جديدًا و اجعل روحي في داخلكم"، حزقيال ٣٦ : ٢٦

و ها انت قد اعترفت بخطاياك، و تحوّلت عنها في قلبك، و عزمت أن تسلم نفسك لله، فاذهب إليه تعالى و اطلب إليه أن يغسلك من ذنوبك و يجعل فيك قلبًا جديدًا، ثم صدق أن الرب قد فعل هذا كله لأنه وعد به، فيكون لك، و قد علّم يسوع بهذه الحقيقة لما كان هنا على الأرض قائلاً. "كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم"، مرقس ١١ : ٢٤. شفى يسوع المرضى إذ آمنوا بقدرته فساعدهم فيما فيما كانوا ينظرون ليكسبهم الثقة به فيما لا ينظرون و الإيمان بقدرته على غفران الخطايا أيضًا، كما صار في حادثة شفاء المفلوج مثلاً، إذ قال للجمهور، لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطانًا على الأرض أن يغفر الخطايا"، حينئذ قال للمفلوج "قم، احمل سريرك و اذهب إلى بيتك"، متى ٩ : ٦، و ايد البشير يوحنا هذه الحقيقة و هو يدوّن الآيات التي صنعها يسوع إذ قال "و أما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله و لكي تكون لكم إذ آمنتم حياة باسمه"، يوحنا ٢٠ : ٣١

من القصص التي رواها البشراء، بكل بساطة عن كيف شفى يسوع المرضى يمكننا أن نتعلم شيئًا عن الإيمان به لغفران الخطية. فلنرجع إذن إلى المريض المضطجع عند بركة بيت حسدا. كان ذلك المسكين ضعيفًا جدًا [39] و قد بلغ العجز منه حدًّا لم يستطع عنده أن يستعمل أوصاله لمدة ثمان و ثلاثين سنة، و مع ذلك أمره يسوع قائلاً : "قم، احمل سريرك و امش"، يوحنا ٥ : ٨، فلو احتج المريض قائلاً : اشفني يا سيد فأطع أمرك، لما نال الشفاء، و لكنه لم يحتج بل صدّق كلمة المسيح و آمن انه قد شفي و في الحال همّ بالقيام، فقام، و أراد أن يمشي، فمشى. أطاع كلمة المسيح فأعطاه الله القدرة و برئ البرء التام

كذلك خاطئ انت، و لا تستطيع أن تكفّر عن تعدّياتك السالفة، و لا تقدر أن تغير قلبك أو أن تقدس نفسك، و لكن قد وعدك الله بان يصنع هذا كله لأجلك في المسيح، و انت تؤمن بهذا و تعترف بخطاياك و تسلم ذاتك لله، و تريد أن تطيعه تعالى، فحالما تؤمن بالوعد و تصدّق أن خطاياك قد غفرت و قلبك

تطهر، يحقق الله لك مواعيده، و يعطيك القوة كما أعطى المسيح مريض بيت حسدا القوة على المشي عندما آمن انه قد شفي، فالأمر يصبح واقعًا، و انت قد شفيت، إن كنت قد آمنت

فلا تنتظر حتى تشعر بانك قد شفيت، بل قل أنا أمنت، و قد صار الشفاء لا لأني شعرت به، بل لان الله قد وعد به

قال يسوع، "كل ما تطلبونه حينما تصلون، فآمنوا أن تنالوه، فيكون لكم"، مرقس ١١ : ٢٤، على أن الشرط الوحيد لإتمام هذا الوعد هو أن تكون الطلبة بحسب مشيئة الله، و الله يريد أن يطهرك من الخطية، و أن يتبناك أيضًا ابنًا له، و أن يقدرك على حياة القداسة، فاطلب كل هذه البركات مؤمنًا بان تنالها، بل اشكر الله انك قد نلتها. انه من حقك أن تسلم نفسك للمسيح ليطهرك، فتقف إذ ذاك أمام الشريعة التي تعديت مناهيها غير خجل و غير مدان، لان "لا شيء من الدينونة الان على الذين هم في يسوع المسيح السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح"، رومية ٨ : ١

و من الآن فصاعدًا انت لست لذاتك، لأنك اشتريت بثمن "لا بأشياء تفنى، بفضة أو ذهب... بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب و لا دنس، [40] دم المسيح"، بطرس ١ : ١٨ و ١٩. بإيمانك بالله قد ولد الروح القدس حياة جديدة في قلبك، فصرت ابنًا لله، عضوًا في الأسرة السماوية، محبوبًا لدى ابنه يسوع

و إذ قد سلمت نفسك ليسوع، فلا ترتدّ عنه و لا تبتعد، بل قل في نفسك كل يوم، "إني للمسيح، و قد سلمته ذاتي"، و اطلب إليه أن يمنحك من روحه و يحفظك بنعمته، كما صرت ابنًا له، بتسليمه نفسك و إيمانك به، فلذلك تحيا به، حسب قول الرسول "كما قبلتم المسيح يسوع الرب اسلكوا فيه"، كولوسي ٢ : ٦

يشعر البعض بانهم، قبل أن يصير لهم الحق في طلب البركة، يجب أن يجتازوا امتحانًا يثبتوا فيه انهم قد اصلحوا حياتهم، بيد أن الحقيقة هي أن لهم الحق أن يطلبوا البركة الآن، بل هم، إن لم ينالوا نعمه" المسيح، و إن لم يأخذوا من روحه، لا يستطيعون أن يقاوموا الشر، زد على ذلك انه يجب أن نأتي إلى المسيح كما نحن ـ خاطئين عاجزين محتاجين، فلنأت بضعفاتنا و جهالاتنا و نجاستنا، و لنرتم عند قدميه في توبة خاضعين، لأنه من دواعي فخر المسيح و مجده، أن يحتضننا بذراعي محبته، و يضمد جروحنا و ينقى قلوبنا

إن الكثيرين لا ينالون الخلاص لأنهم لا يصدقون أن عفو المسيح يشملهم هم شخصيًا، و لا يثقون بان الله يقصدهم بالذات في مواعيده. بيد انه من حق كل فرد قد قام بالشروط أن يعرف و يتأكد أن جميع خطاياه قد غفرت مجانًا، فان كنت تشكّ في أن الله يعنيك بمواعيده، انزع عن نفسك هذا الشك و آمن بأن مواعيد الله إنما هي لكل مذنب تائب بالحق، بل و انه تعالى قد اعد في المسيح نعمًا و بركات يقدمها لكل مؤمن محتاج بواسطة الملائكة الطائعين أمره، و ليس من مذنب قد بلغت خطيته و اثميته حدًا لا يجد معه القوة و الطهارة و البرّ في المسيح الذي مات لأجله، فان الفادي لفي انتظار الخاطئ الأثيم لكي ينزع عنه الثياب القذرة [41] و يلبسه ثيابًا مزخرفة، فقد أمر بحياته لا بموته

إن الله لا يعاملنا كما يعامل الناس بعضهم بعضًا، إذ أن أفكاره افكار رحمة و محبة و شفقة كما صرّح بذلك قائلاً : "ليترك الشرير طريقه و رجل الإثم أفكاره، و ليتب إلى الرب فيرحمه، و إلى الهنا لأنه يكثر الغفران"، و "قد محوت كغيم ذنوبك و كسحابة خطاياك"، اشعياء ٥٥ : ٧ و ٤٤ : ٢٢

لأني لا اسرّ بموت من يموت يقول الرب، فارجعوا و احيوا"، حزقيال ١٨ : ٣٢، و لكن الشيطان" واقف لنا بالمرصاد ليسلب نفوسنا ثقتها بهذه التأكيدات المباركة، و يطفي فينا كل بارقة أمل و كل بصيص من الرجاء، و يحجز عنا كل شعاع من النور، فلا تسمح له أن يفوز بشيء مما يضمره لك، و لا تعطيه أذنًا صاغية، بل قل له "إن يسوع قد مات عني لكي أحيا أنا، فهو إذن يحبني و لا يشاء أن أموت، و لي أب رحيم في السماء، و لئن كنتُ قد أسأت إلى محبته و بذرت بإسراف بركاته"، "فاني أقوم و

اذهب إلى أبي و أقول له يا أبي أخطأت إلى السماء و قدامك و لست مستحقًا أن ادعى لك ابنًا، اجعلني كأحد أجراك"، لوقا ١٥ : ١٨ و ١٩. و لا شك في أن الله الاب يقبل الابن الضال إذا رجع إليه، "و إذ لم يزل بعيدًا رآه أبوه، فتحنن و ركض و وقع على عنقه و قبّله"

إن مثل الابن الضال، و إن كان بالغًا في اللطف و الرقة، ليقصر عن وصف شفقة الله الأبوية التي لا تعرف حدًا، و قد قال على لسان ارميا، "محبة أبدية أحببتك"، ارميا ٣١ : ٤، و على لسان هوشع "كنت اجذبهم... بربط المحبة"، هوشع ١١ : ٤، فبينما الخاطئ لا يزال بعيدًا عن بيت الآب يبذر أمواله في بلاد بعيدة، ينقد قلب الاب شوقًا إليه، و كل ما يتولد في قلب الخاطئ من رغبة في الرجوع إلى بيت الآب إنما هو من مناجاة الروح فيه و توسلاته إليه ليرجع إلى قلب أبيه المحب

أبَعْدَ هذه المواعيد الغنية السخية التي جعلها الله بين ايدينا، تدع للشك مكانًا في نفسك؟ و هل تتصور أن الله يبدي صدودًا و جاء لخاطئ تتوق نفسه [42] [43] إلى أن يترك خطاياه و يرجع إليه نادمًا تائبًا. تبًا لكل فكرة كهذه، لأنه لا شيء اضرّ لنفسك من مثل هذه الأوهام، فان الآب السماوي، و إن كان يبغض الخطية، إلا انه يحب الخاطئ، و لذلك بذل نفسه في شخص المسيح لكي يخلص كل من أراد الخلاص، و يمنحه الطوبى في ملكوت المجد، و هل من لغة تعبّر عن عن محبته ارقّ و أقوى من قوله، "هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها، حتى هؤلاء ينسين، و أنا لا أنساك"، اشعياء ٤٩ : ١٥

فانتصب يا من عراك الشك و الخوف، فان يسوع حيّ ليشفع فيك، و اشكر الله الذي بذل ابنه الحبيب لأجلك، و توسل إليه أن لا يكون موته عنك عبثًا، فان الروح يدعوك اليوم مناشدًا إياك أن تأتي بكل قلبك إلى يسوع، و تطلب إليه أن يمنحك هباته و بركاته

و إذ تقرأ المواعيد فاذكر أنها تعبر عن رحمة و شفقة لا توصفان، فان قلب تلك المحبة العجيبة ليحنو على الخاطئ و يحوطه بكل عوامل الرأفة و الحنان، و نحن "قد صار لنا فيه الفداء بدمه غفران الخطايا"، افسس ١ : ٧، و لم يبقَ عليك إلا أن تؤمن بان الله هو عونك و قوتك، و هو يريد أن يستعيد صورته الأدبية في الإنسان، فكلما اقتربت منه بالاعتراف و التوبة، اقترب هو أيضًا منك بالرحمة و الغفران [44]

الطاعة

إذًا، إن كان احد في المسيح فهو خليقة جديدة، الأشياء العتيقة قد مضت، هو ذا الكل قد صار" جديدًا"، ٢ كورنثوس ٥ : ١٧

قد لا يستطيع شخص أن يعرف تمامًا الوقت الذي بدأ فيه أن يتجدد، و قد لا يستطيع أيضًا أن يحدد المكان أو الظروف التي لابست عملية التجديد و لكن هذا لا يعني انه غير متجدد، فقد قال المسيح لنيقوديموس، "الريح تهبُّ حيث تشاء و تسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي و لا إلى أين تذهب. هكذا كل من ولد من الروح"، يوحنا ٣ : ٨، و كما أن الروح لا ترى بالعين بل تعرف بتأثيرها و قوّتها، فكذلك عمل روح الله في قلب الإنسان، فهذه القوة المجددة، التي لا يمكن أن ترى بالعين البشرية، تولد في النفس حياة روحية، و تجعل من الإنسان مخلوقًا جديدًا على صورة الله، و فيما يكون عمل الروح في الداخل سرًّيا خفيًا، إذا بتأثيره في الحياة الخارجية يبدو ظاهرًا جليًا، و كل تجديد يتم في قلب الإنسان بفعل الروح القدس، تتجلى آثاره [45] للعيان، فلئن كان عمل الروح فينا غير منظور، إلا أن حياتنا تنبئ به، و أعمالنا تدل عليه، و إذا حل في قلوبنا روح المسيح، فلا بد من أن يكون فرق واضح بين ما كنا عليه، و بين ما صرنا إليه، غير أن المصادفات، صالحة كانت أم طالحة، لا تكشف القناع عن حقيقة أخلاق الإنسان، و إنما يعلنها اتجاه حياته الدائم و أعماله و كلماته المعتادة

نعم، قد يستطيع الإنسان أن يبدو للناس في مظهر حسن لائق دون أن يكون متجددا بنعمة الله، وقد ينشئ حب النفوذ و الرغبة في إعجاب الغير نظامًا جميلاً في حياته، و قد يؤدي به الاعتداد بالذات إلى تجنب الشر و شبه الشر، "و قد يجود البخيل"، فكيف إذن، و الحالة هذه، نستطيع أن نحكم في أننا قد تجددنا أم لا؟

و لكن لمن القلب؟ و في من نفكر و عمن نتحدث؟ و بمن نتعلق حبًا و اشتياقًا، و لأجل من نبذل أقصى الجهود؟ لأننا إن كنا للمسيح فبه نلهج و اسمه نذكر و له نقف جميع ما لنا، و أننا لنشتاق إذ ذاك إلى أن نكون مثله، و نقتفي آثاره، و نمتلئ من روحه، و نطلب رضاه في كل شيء

فكل الذين يصيرون في المسيح خليقة جديدة "يظهرون في حياتهم أثمار الروح، التي هي، "محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف صلاح، إيمان، وداعة، تعفف"، غلاطية ٥ : ٢٢ و ٢٣، فلا يعودون يسلكون حسب شهواتهم السابقة، بل بإيمان ابن الله يتبعون خطواته، و يحملون صفاته و سجاياه، و يطهرون انفسهم كما هو طاهر، حتى لقد تراهم، فإذا هم يحبون ما كانوا يكرهون، و يكرهون ما كانوا يحبون، فالداعر الفاجر تراه و إذا هو قديس طاهر، و المتكبر الفخور تراه فإذا هو متواضع شكور، و مدمن الخمر تراه فإذا هو قد طرح الشر جانبًا، و حوَّل اهتمامه إلى إنسان "القلب الخفي"، "و زينة الروح الوديع الهادئ الذي هو قدام الله كثير الثمن"، ١ بطرس ٣ : ٣ و ٤

فليس من دليل على التوبة الصحيحة، إلا إذا شمل الحياة كلها تغيير [46] فعلي و إصلاح حقيقي، فإذا قام الخاطئ بردّ ما ارتهنه، و تعويض ما استلبه و الاعتراف بما اقترفه و ارتكبه، و اظهر محبته لله،

و لأخيه الإنسان، ليعلم انه قد انتقل من الموت إلى الحياة

و عندما نأتي إلى المسيح، كخطاة و أثمة، و نحظى بنعمة الغفران، تتفجر في قلوبنا ينابيع المحبة، فيصبح نيره هينًا، و حمله خفيفًا، ، يصير الواجب لذة، و تصبح التضحية غبطة و مسرة، و نرى الطريق الذي كان يبدو لنا مظلمًا مخيفًا، فإذا هو قد اصبح مزدانًا بشمس البرّ، و مغمورًا بأشعتها الجميلة

يتجلى في تبّاع المسيح سمو صفاته و كمال سجاياه، فهو سرَّ بان يفعل مشيئة الله، و لذلك ملكت حياته المحبة لله و الغيرة على مجده، بل زانت المحبة جميع أعماله و حلت كل تصرفاته، و ليست المحبة إلا من الله، فلا يستطيع قلب الخاطئ أن ينشئها و لا أن يحويها، إنما هي تسود فقط في القلب الذي يملك فيه يسوع، فنحن نحبه، لأنه هو احبنا أولاً، و المحبة مبدأ العمل في كل متجدد بنعمة الله، تلطف سجاياه، و تقمع أهواءه، و تملك براعته و تستأصل عداوته، و ترقق عواطفه، فهذه المحبة، إن عززتها النفس، تزين الحياة و تؤثر تأثيرًا جميلاً في كل من يراها

يتعرض أولاد الله، و لا سيما حديثو الإيمان منهم، لغلطتين يجب أن يكونوا على حذر منهما، أولاهما، و قد تقدم الكلام فيها، غلطة الاعتماد على جهودهم ظنًا منهم انهم يصيرون على وئام مع الله بأعمالهم، و الحقيقة هي أن الذي يطلب أن يتقدس بحفظ ناموس الله يطلب المستحيل، فالأعمال التي يقوم بها الإنسان بدون المسيح تتلوَّث بالاثرة و الخطية، لان التقديس إنما هو بالإيمان بنعمة المسيح وحدها

و أما الغلطة الثانية فهي نقيضة الأولى، ولا تقلّ عنها خطرًا، و هي زعم بعضهم أن الإيمان بالمسيح قد حرر المؤمن من واجب الطاعة لناموس الله، و انه ليس للأعمال شأن في الفداء لان الإنسان يصير شريكًا في نعمة المسيح بالإيمان فقط

و لكن الطاعة هنا ليست مجرد إذعان، ظاهري، بل هي خدمة المحبة، [47] فان ناموس الله يعبر عن صفات الله، و قد تجسم في هذا الناموس مبدأ المحبة، و لذلك هو أساس حكم الله في السماء و على الأرض، فإذا كانت قلوبنا قد تجددت على صورة الله و استقرَّت المحبة الإلهية في النفس، أفلا يتمثل ناموسه في حياتنا؟ و متى ساد مبدأ المحبة في القلب و تجدد الإنسان حسب صورة خالقه فقد تم الوعد الذي جاء في العهد الجديد القائل : "اجعل نواميسي في قلوبهم و اكتبها في أذهانهم"، عبرانين ١٠ : ١٦. و إذا كان الناموس مسطورًا على القلب أفلا يكيف الحياة؟ فالطاعة المبنية على خدمة المحبة و الولاء، هي علامة التلمذة الحقيقية الفارقة. لذلك يقول الكتاب "فان هذه محبة الله أن نحفظ وصاياه"، ١ يوحنا ٥ : ٣ "فمن قال قد عرفته و هو لا يحفظ وصاياه، فهو كاذب و ليس الحق فيه" ١ يوحنا ٢ : ٤. فالإيمان إذن لا يحرر الإنسان من واجب الطاعة، بل بالحري هو الإيمان و الإيمان وحده الذي يجعله شريكًا في النعمة التي تقدره على تقديم الطاعة الكاملة

على أن الخلاص لا يصير حقًا لنا بالطاعة، إنما الخلاص هبة مجانية نتقبله من الله بالإيمان، و ما الطاعة إلا ثمرة الإيمان لذلك يقول الرسول، "تعلمون أن ذلك أظهر لكي يرفع خطايانا و ليس فيه خطية، كل من يثبت فيه لا يخطئ، كل من يخطئ لم يبصره و لا عرفه"، ١ يوحنا ٣ : ٥ و ٦. فالطاعة إذن هي العلامة الفارقة، لان الذي يثبت في المسيح و تملك المحبة في قلبه تكون أمياله و أعماله مطابقة لإرادة الله المعلنة في وصايا شريعته المقدسة، "أيها الأولاد، لا يضلكم احد، من يفعل البر فهو بار كما أن ذاك بار"، ١ يوحنا ٣ : ٧، و أما مقياس البر فهو ناموس الله الذي انزله على جبل سيناء

إذن، فالإيمان المزعوم الذي يحرر الناس من التزامات الطاعة لناموس الله، ليس هو في الحقيقة إيمانًا، بل تصلفًا و تطاولاً، و صحيح أن الرسول بولس يقول : "بالنعمة انتم مخلصون بالإيمان"، افسس ٢ : ٨، و لكن يجب ألا يغرب عن بالنا أن "الإيمان أيضًا إن لم يكن له أعمال فهو ميت في ذاته"، يعقوب ٢ : ١٧، و لقد اكد يسوع نفسه وجوب الطاعة للناموس [48] إذ قال عن نفسه قبل مجيئه إلى هذه الأرض،

"أن افعل مشيئتك يا الهي سررت، و شريعتك في وسط أحشائي"، مزمور ٤٠ : ٨. و قال أيضًا قبل صعوده "أنا قد حفظت وصايا أبي و اثبت في محبته" : يوحنا ١٥ : ١٠، و كذلك يقول الروح القدس على لسان يوحنا "بهذا نعرف أننا قد عرفناه، أن حفظنا وصاياه. من قال قد عرفته و هو لا يحفظ وصاياه فهو كاذب و ليس الحق فيه... و من قال انه ثابت فيه ينبغي انه كما سلك ذاك، هكذا يسلك هو أيضًا"، ١ يوحنا ٢ : ٣ ـ ٦، و قوله على لسان الرسول بطرس 'فان المسيح أيضا تألم لأجلنا، تاركًا لنا مثالاً لكي تتبعوا خطواته"، ١ بطرس ٢ : ٢١

يتبين من هذا أن الطاعة الكاملة للناموس الإلهي، لا تزال هي شرط التمتع بالحياة الأبدية، كما كانت في عهد أبوينا الأولين، و هما في جنة عدن، لأنه لو كان شرط آخر للحصول على الحياة الأبدية، دون الطاعة الكاملة لله، لظل باب الخطية مفتوحًا على الدوام تتدفق منه سيول البؤس و الشقاء، مما يقضي على سعادة الكون باسره

لقد كان في مقدور آدم، قبل السقوط، أن يصوغ سجايا بارة بالطاعة لناموس الله، و لكنه عصى فسقط، و بخطيته سقطنا نحن أيضًا، و لا نستطيع أن نغير طبيعتنا فنصير أبرارًا، و لا يمكننا، و نحن نجسون، أن نؤدي الطاعة الكاملة لناموس مقدس، و ليس لنا برّ ذاتي نوفي مطاليب العدالة الحقة، و لكن المسيح قد فتح لنا باب النجاة إذ قد عاش على الأرض فتعرّض لكل ما نتعرّض له نحن من تجارب الحياة و شدائدها، و انتصر، فقد عاش بلا خطية ثم مات لأجلنا، و هو مستعد لان يحمل عنا خطايانا و يهبنا برّه، فإذا انت سلمته نفسك و قبلته فاديًا و مخلصًا لك حسبت بارًا كأنك لم تخطئ قط، إذ أن صفاته قد حسبت لك فصارت صفاتك

و فضلاً عن ذلك، فان المسيح يغير القلب و يحل فيه بالإيمان، فعليك أن تحتفظ بصلتك بالمسيح، بالإيمان، و تعمل على إخضاع إرادتك له [49] إخضاعًا مستمرًا، و ما دمت تفعل ذلك، فانه يعمل فيك أن تريد أن تعمل من اجل المسرّة، حتى تستطيع أن تقول، "فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي احبني، و اسلم نفسه لأجلي"، غلاطية ٢ : ٢٠، و لذلك قال المسيح لتلاميذه، "لان لستم انتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم"، متى ١٠ : ٢٠، و إذ يكون المسيح عاملاً فيك، تستطيع أن تظهر روحه، و أن تعمل أعماله، أعمال البر الفضلى التي هي الطاعة المثلى

و إذن، فليس لنا في انفسنا ما يحملنا على التفاخر، أو يسوّغ لنا التعاظم لان أساس رجائنا، إنما هو بر المسيح المحسوب لنا و ما يعمله الروح فينا و بنا

و إذا نتكلم عن الإيمان يجب أن يكون في فكرنا التمييز بين الإيمان الحقيقي و مجرد التصديق لان الشيطان نفسه لا يستطيع أن ينكر وجود الله، و لا أن يتجاهل قدرته أو يكذب صدق أقواله، كما اثبت ذلك الرسول يعقوب في قوله "الشياطين يؤمنون و يقشعرون" يعقوب ٢ : ١٩. إلا أن إيمان الشياطين ليس إيمانًا للخلاص إذ ليس فيه خضوع لإرادة الله، و أما الإيمان الذي يحدو بالإنسان إلى تسليم قلبه لله و الاتكال عليه فهو الإيمان الصحيح، "الإيمان العامل بالمحبة" الذي يجدد في صاحبه صورة الله حتى أن القلب، الذي في حالة عدم تجدده ليس خاضعًا لناموس الله، لأنه أيضًا لم يستطع، اصبح يبتهج بالشريعة قائلاً مع المرنم "كم أحببت شريعتك، اليوم كله هي لهجي" مزمور ١١٩ : ٩٧، و هكذا "يتم حكم الناموس فينا نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح" رومية ٨ : ١ و ٤

و بين المؤمنين قوم يعرفون محبة المسح الصفوح و يرغبون في أن يكونوا أولادًا لله، غير انهم يشعرون بان حياتهم مليئة بالنقائص و العيوب مما يحملهم على الارتياب من انهم تجددوا بالروح القدس، فلأمثال هؤلاء أقول، لماذا التخاذل؟ لأننا كثيرًا ما نلتزم بعد قبولنا المسيح أن نبادر إليه و نرتمي [50] عند قدميه معترفين بدموع سخية بخطايانا و تقصيراتنا، و لكن علينا أن لا نيأس، لان الله، و إن كان

العدو قد غلبنا، لا يرفضنا و لا يهملنا و لا يتركنا، فالمسيح عن يمين الاب يشفع فينا، و قد قال يوحنا الحبيب في هذا "يا أولادي اكتب إليكم هذا لكي لا تخطئوا، و إن اخطأ احد فلنا شفيع عند الاب يسوع المسيح البار"، ١ يوحنا ٢ : ١. لنذكر أيضًا كلمات يسوع، "الاب نفسه يحبكم"، يوحنا ١٦ : ٢٧، و هو يريد أن يردك إليه و يطبع على حياتك صورته و قداسته. فإذا كنت تسلم نفسك له لا بد من أن يكمل العمل الصالح الذي ابتدأه فيك، فلنصلّ بأكثر لجاجة و لنؤمن إيمانًا راسخًا، و كلما شعرنا بضعفنا فلنزدد ثقة بقدرة الفادي و لنرتجِ الله لأننا بعد نحمده خلاص وجهنا و الهنا. مزمور ٤٣ : ٥

اننا، كلما دنونا من يسوع. ازددنا شعورًا بما فينا من نقائص و عيوب، إذ نرى انفسنا على حقيقتها في ضوء الكمال الإلهي، و ما الشعور بالنقص إلا الدليل على أن القلب قد بدا يزايله الغرور، و أن الضمير قد بدا يستيقظ من سباته و يبعث من موته، بفعل الروح القدس

و لن تتأصل في قلوبنا محبة يسوع، ما لم نتحقق من اثميتنا، و ندرك خطأنا، و لن نعجب بكمال الله و جماله، ما لم تكن قلوبنا متحدة بنعمته. فان كنا لم نرَ بعد نقصنا الروحي، و لم ندرك ضعفنا الأدبي، فما ذلك إلا الدليل البيّن على أننا لم نعرف المسيح بعد، و لم نجتلِ محاسنه و مزاياه

فكلما قلّ تقديرنا لأنفسنا، ازداد تقديرنا لطهارة المخلص و جماله الذين لا حد لهما، و إننا إذ ندرك خطأنا و اثميتنا، نلجأ إلى ذاك الذي يستطيع أن يعفو و يصفح، و إذ نشعر بقصورنا و عجزنا، فانه لا يني عن إعلان ذاته بقوة، و كلما شعرنا بالحاجة إليه، و إلى كلمته، تجلت لنا بأكثر وضوح، صفاته الجليلة، و انطبعت في قلوبنا صورته الجميلة [51]

النمو

يسمي الكتاب المقدس تغيير القلب ـ التغيير الذي به نصير أولاد الله ـ ولادةً، و يشبّهه أيضًا ببروض الزرع الجيد الذي بذره الفلاح في حقله، و يحضّ الذين تجددوا على أن "ينموا" "كأطفال مولودين الآن" إلى أن يبلغوا "قياس قامة ملء المسيح"، بطرس ٢ : ٢ و افسس ٤ : ١٥، و أن يثبتوا و يثمروا مثل الزرع لأنهم "أشجار البر غرس الله للتمجيد"، اشعياء ٦١ : ٣، فمن هذه الأمثلة المستمدة من الحياة الطبيعية نستطيع أن نقف على بعض أسرار الحياة الروحية

و ليس في مكنة الإنسان مهما احرز من الحكمة و المهارة أن ينشئ حياة في نبات أو حيوان، لان مصدر الحياة هو الله، و به وحده يحيا كل حي، و كذلك أيضًا في العالم الروحي، لا تتولد حياة روحية في قلب الإنسان إلا بفعل الله، و إن لم يولد الإنسان "من فوق" لا يستطيع أن يكون [52] شريكًا في الحياة التي جاء يسوع ليهبها للعالم

و شأن الحياة هو شأن النمو بالذات، فالذي يجعل البرعم زهرًا و يحوّل الزهر أثمارًا هو الله الذي بقوته يجعل البذر "أولاً سنبلاً ثم قمحًا ملآن في السنبل"، مرقس ٤ : ٢٨، و قال هوشع النبي عن شعب الله انهم يزهرون كالسوسن "و يحيون حنطة و يزهرون كجفنة"، هوشع ١٤ : ٥ و ٧، و يأمرنا يسوع أن نتأمل "الزنابق كيف تنمو" لوقا ١٢ : ٢٧، فان النبات و الزهور لا تنمو باهتمامها، و لا تزهو بعنائها و كدّها، و لكنها تنمو إذ تتقبل من الله ما اعدّه لنموها، و الولد لا يستطيع بقوته و اجتهاده أن يزيد على قامته ذراعًا، و كذلك في الحياة الروحية، لا تستطيع انت أن تنمو باجتهادك و مجهودك، بل كما أن الولد و النبات ينميان كلاهما بأخذهما من المحيط ما يخدم حياتهما ـ كالهواء النقي و ضوء الشمس و الطعام ـ هكذا تنمو انت أيضًا بقبولك المسيح شمس البر، و النور الأبدي، فانه "لإسرائيل كالندى" و ينزل على الجزاز مثل الغيوث الذارفة على الأرض"، هوشع ١٤ : ٥ و مزمور ٧٢ : ٦، و هو أيضًا "الماء الحي" و "خبز الله النازل من السماء لكي يعطي حياة للعالم"، يوحنا ٦ : ٣٣

فالله إذ أعطى ابنه يسوع المسيح قد أحاط العالم بجوّ من النعمة كما يحيط الهواء الكرة الأرضية، و كل من يختار أن يستنشق هواء هذا الجو المنعش يحيا و ينمو و يسمو إلى قياس قامة ملء المسيح

و كما تتجه الزهور نحو الشمس لتستمد من أشعتها ما يجمّلها و يكمل تنسيقها هكذا يجب أن نتجه صوب شمس البر يسوع المسيح الذي يضيء علينا بنوره من السماء فننمو في حياتنا الروحية حتى نصير مشابهين لصورته

و هذا عين ما علم به يسوع في قوله : "اثبتوا فيّ و أنا فيكم، كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته، إن لم يثبت في الكرمة، كذلك انتم إن لم تثبتو فيّ... الذي يثبت فيّ هذا يأتي بثمر كثير، لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا"، يوحنا ١٥ : ٤ و ٥، فحاجة الغصن [53] إلى اصل الشجرة لكي تحيا حياة البر، إذ لا حياة لك إذا انفصلت عنه، و لا قوة لك على مقاومة التجارب و النمو في النعمة و القداسة، و لكن إذا ثبتّ فيه تكون مثل شجرة مغروسة على مجاري المياه، أوراقها لا تذبل و لا تكون

عقيمة، بل تزهو و تثمر دائمًا

غير أن الكثيرين يتصورون أن عليهم وحدهم أن يقوموا بقسط وافر من عمل النمو فقد قبلوا من المسيح غفران الخطية مجانًا، و لذلك يحسبون أن حاجتهم إنما هي أن يعيشوا باستقامة و كمال، و أما كل محاولة كهذه فمصيرها إلى الإخفاق و الفشل، كما قال المسيح "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا"، فنموّنا في النعمة في النعمة يتوقف كله على اتحادنا بيسوع، و لا يتسنى لنا أن ننمو في النعمة إلا بمحادثتنا يسوع كل ساعة و الثبوت فيه كل دقيقة، فالمسيحية هي المسيح أولاً و آخرًا و دائمًا و أبدًا، إذ يجب أن يكون معنا في أول الطريق و في نهايتها، بل في كل خطوة منها، و إلا فنصيبنا الفشل، كما قال داود في ذلك "جعلت الرب أمامي في كل حين، لأنه عن يميني فلا أتزعزع"، مزمور ١٦ : ٨

أتسأل، "كيف اثبت في المسيح؟" انك تثبت فيه بنفس الكيفية التي بها قبلته أولاً، و هاك ما كتبه الرسول بولس في هذا المعنى "كما قبلتم المسيح يسوع الرب اسلكوا فيه"، كولوسي ٢ : ٦، "و أما البار فبالإيمان يحيا" عبرانيين ١٠ : ٣٨، فقد سلمت نفسك تسليمًا تامًا لخدمة الله و طاعته، و قبلت يسوع مخلصًا لك، و لم يكن في مقدورك أن تكفّر عن خطاياك و لا أن تغير قلبك، و لكنك حين سلمته تعالى نفسك آمنت بانه انعم عليك بهذا كله في المسيح، فبالإيمان إذن صرت للمسيح، و بالإيمان يتسنى لك أن تثبت فيه، انه لأخذ و عطاء، انت تعطيه الكل. قلبك و إرادتك و خدمتك، و تأخذ منه الكل، ملء البركات و حلول المسيح في قلبك ليكون لك قوةً و برًا و عونًا أبديًا، فيهبك القدرة على الطاعة الكاملة

فبكر إلى الله في الصباح، و سلم له نفسك جديدًا، و لتكن صلاتك [54] إليه : "يا رب إني لك بجملتي، واضع كل تدبيراتي لهذا النهار في يديك لتستخدمني كيفما تشاء، كن معي، و لتكن أعمالي اليوم أعمالك". إن هذا لفرض عليك كل يوم أن تخصص نفسك لله كل صباح لتكون له طول النهار، و سلمه كل تدبيراتك لتنفيذها أو لابطالها كما تشاء عنايته، و هكذا تكون مسلمًا حياتك لله ليصوغها و يصبها في قالب حياة يسوع فتصير مثله

الحياة في المسيح هي حياة الراحة، و قد تكون خالية من فرط الشعور بالفرح، و لكن يجب أن يملأها السلام الدائم و الثقة الثابتة إذ أن رجاءك ليس في ذاتك بل في المسيح الذي يبدل ضعفك بالقوة و يهبك عوض جهلك و عجزك الحكمة و البأس، تنظر إلى نفسك و لا تركز تفكيرك في ذاتك بل تطلع إلى المسيح، و تأمل محبته و تفكر في اتضاعه فتتغير تغييرًا مطردًا حتى تصير مشابهًا لصورته

قال المسيح "اثبتوا فيّ"، و معنى الثبوت الراحة و الطمأنينة و الاستقرار، ثم دعانا قائلاً : "تعالوا إليّ... أنا أريحكم"، متى ١١ : ٢٨ و ٢٩، و لقد بين لنا بواسطة اشعياء انه "بالرجوع و السكون تخلصون، بالهدوء و الطمأنينة تكون قوتكم" اشعياء ٣٠ : ١٥، على أن هذه الراحة لا تعني التواني و الكسل، لان المخلص في دعوته قرن الوعد بالدعوة إلى العمل إذ قال "احملوا نيري عليكم... فتجدوا راحة لنفوسكم"، متى ١١ : ٢٩، فبقدر ما يستريح الإنسان في المسيح يكون جدّه و نشاطه في للعمل لأجله

لكن إن كان اهتمامنا بأنفسنا فلا بدّ من أن نتحوّل عن مصدر حياتنا و قوتنا يسوع، فيبذل الشيطان إذ ذاك جهدًا جهيدًا مستمرًا ليصرف نظرنا عن المخلص فيمنع اتحادنا به و محادثتنا إياه، و يشغلنا بلذات العالم و هموم الحياة و ارتباكاتها و بغلطات الغير أو بغلطاتنا نحن، و هكذا يسعى إلى أن يلهينا عن المسيح، فلننتبه لئلا يخدعنا بمكائده، لأنه كثيرًا ما ينجح في تحويل ذوي الضمائر الحية و الرغبة الصادقة إلى التأمل في غلطاتهم و ضعفاتهم أملاً منه في فصلهم عن يسوع و إحراز الغلبة النهائية، فلا تهتم لنفسك و لا تستسلم للقلق [55] و الخوف من جهة خلاصك، لان هذا كله من شأنه أن يحولك عن مصدر قوتك، بل سلم نفسك إلى الله و اتكل عليه، و ليكن حديثك عن يسوع و تفكيرك فيه إلى أن يغمرك

و تنسى نفسك، اطرح عنك كل شك و أبعد عنك كل خوف و قل مع الرسول "أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ، فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه بالإيمان، إيمان ابن الله الذي احبني و اسلم نفسه لأجلي"، غلاطية ٢ : ٢٠، توكل على الله فانه قادر على أن يحفظك و وديعتك، و إن فوَّضت أمرك إليه يعظم انتصارك بالذي احبك

لقد ربط المسيح البشرية بنفسه، باتخاذه الصورة الإنسانية، برباط حبي لا تنفصم عراه أبدًا، اللهم إلا باختيار الإنسان نفسه، لذلك تجد الشيطان دؤوبًا على إغراءنا بشتى المغريات لعله يحملنا على قطع هذه الرابطة باختيارنا و الانفصال عن المسيح برغبتنا، فمن ثم يجب أن نسهر و نجاهد و نصلي لكيلا يستغوينا غاو على أن نختار سيدًا آخر ـ فلنا دائمًا ملء الحرية أن نختار لأنفسنا ما يحلو لنا ـ على أن المسيح ليحفظنا إن نحن ثبتنا النظر فيه، فما دمنا نلتفت إليه نحن آمنون، لا يستطيع احد أن يخطفنا من يده، و بالنظر إليه "نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد، كما من الرب الروح"، ٢ كورنثوس ٣ : ١٨

اجل، بهذه الوسيلة استطاع التلاميذ الأولون أن يتشبهوا بمخلصهم العزيز فهم إذ سمعوا كلماته شعروا بحاجتهم إليه فطلبوه فوجدوه فتبعوه، فرافقوه حين جلوسه إلى المائدة، و لازموه في المخدع و صحبوه إلى الحقول، و كانوا معه كالتلميذ مع المعلم يتلقن منه دروسًا في قداسة الحق، و كعبد يتلقى أوامر سيده، و مع ذلك كانوا أناسًا تحت الآلام مثلنا، يعقوب ٥ : ١٧، يحاربون الخطية كما نحاربها نحن، و يحتاجون إلى نعمة ربهم لكي يحيوا حياة مقدسة

فيوحنا الحبيب، ذلك التلميذ المحبوب، بانت عليه صورة المخلص اكمل بيان، غير أن سجاياه السامية لم تكن فطرية فيه، فقد كان مدَّعيًا العظمة، طموحًا إلى الكرامة، متهورًا شديد الامتعاض إذا أصابه أذى، و لكنه إذ تجلت له صفات ذلك الإنسان الإلهي، أدرك عجزه، فقاده الإدراك إلى [56] الاتضاع، و إن ما رآه يوحنا في حياة ابن الله اليومية من القوة و الصبر، من القدرة و الرقة، من الجلالة و الوداعة، ملأ نفسه بالإعجاب و المحبة، فارتكزت عواطفه في المسيح، و تقوّت يومًا فيومًا إلى أن نسي نفسه و استغرق في حب سيده العظيم، فسلم طبيعته الحادة إليه ليصبها في قالبه، و ليخلق فيه بالروح القدس قلبًا جديدًا، و ليغير بمحبته صفاته تغييرًا كاملاً شاملاً، إن هذه النتائج تلازم أكيدًا كل اتحاد بالمسيح، فمتى حل المسيح في القلب تتغير الطبيعة من اصلها، لان روح المسيح يلين القلب و محبته تخضع النفس، فتسمو الأفكار إلى السماء و تعلو الرغائب إلى الله

صعد المسيح إلى السماء و لكنَّ تابعيه ما فتئوا يشعرون بحضوره معهم حضورًا شخصيًا يشملهم بمحبته و يرشدهم بنوره، فبعد أن ذهب عنهم مخلصهم الذي سار معهم و تحدث اليهم و صلى لأجلهم واحيا فيهم الرجاء و عزى قلوبهم، نعم، بعد أن ذهب عنهم و على شفتيه رسالة السلام، رجع اليهم من سحابة الملائكة صدى وعده، "ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر"، متى ٢٨ : ٢٠. ذهب يسوع إلى السماء و هو بالزيّ الإنساني، و تيقن التلاميذ انه أمام عرش الله صديقهم و مخلصهم، فلم يطرأ على عواطفه تغيير بل لم يزل واحدًا من البشرية المتألمة يقدم أمام الآب استحقاق دمه و جروحات يديه و رجليه مظهرًا انه قد وفى حق فدائهم بالتمام، و عرفوا انه إنما عاد إلى السماء ليعد لهم منازل، فيأتي أيضًا و يأخذهم ليكونوا معه إلى الأبد

حين اجتمعوا معًا بعد صعوده كان شوقهم عظيمًا إلى الصلاة باسمه، و كانوا يجثون بكل خشوع و يرددون ذلك الوعد القائل "إن كل ما طلبتهم من الآب باسمي يعطيكم، إلى الآن لم تطلبوا شيئًا باسمي، اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً"، يوحنا ١٦ : ٢٣ و ٢٤، و ما انفكوا يرفعون يد الإيمان مرددين هذه الحجة القوية بقولهم أن المسيح "الذي مات بل بالحري قام أيضًا، الذي هو أيضًا عن يمين الله، الذي أيضًا يشفع فينا" رومية ٨ : ٣٤، حتى حلّ يوم الخمسين، فوافاهم المعزّي الذي وعدهم به المخلص في

قوله "انه خير لكم أن انطلق، لأنه إن لم انطلق لا يأتيكم [57] المعزّي و لكن إن ذهبت أرسله إليكم"، يوحنا ١٦ : ٧، و منذ ذلك الحين اصبح المسيح يحلّ في قلوب المؤمنين حلولاً دائمًا، بل اصبح اقرب منهم و أوثق صلة بهم مما كان في أيام جسده و صارت محبته و نعمته و قوته اكثر تجليًا في حياة أولاده، حتى إن كل من رآهم تعجب و تأكد انهم كانوا من اتباع يسوع، اعمال ٤ : ١٣

م كانه المسيح لتلاميذه الأولين، هذا يريد أن يكونه للمؤمنين به في هذه الأيام كما يتضح ذلك من صلاته التي صلاها قائلاً، "و لست اسأل من اجل هؤلاء فقط بل أيضًا من اجل الذين يؤمنون بي بكلامهم" يوحنا ١٧ : ٢٠

و قد صلى لأجلنا و ابتهل إلى الله لكي نكون واحدًا، كما انه هو و الآب واحد، فقد قال المخلص عن نفسه، "لا يقدر الابن أن يفعل من نفسه شيئًا" يوحنا ٥ : ٩، "الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال"، يوحنا ١٤ : ١٠، فإذا كان المسيح حالاً في قلوبنا لا بدّ من أن يعمل فينا لكي نريد و أن نعمل لأجل المسرّة، فيلبي ٢ : ١٣، فنعمل كما عمل هو و يتجلى فينا الروح الذي تجلى فيه، و هكذا إذ نحبه و نثبت فيه "ننمو في كل شيء إلى ذلك الذي هو الرأس المسيح"، افسس ٤ : ١٥

58]   ]

العَمل

إن الله لمصدر الحياة و النور و السعادة للعالمين، تنبثق منه البركات لجميع مخلوقاته كما تنبثّ من الشمس أشعتها المنعشة و كما تنفجر من العين مياهها الحية، و عندما تملأ حياء الله قلب الإنسان تفيض منه حاملة المحبة و البركة للآخرين أيضًا

اغتبط المسيح أن يفدى الإنسان الهالك و تهلل أن يرفعه إلى الله، و لم يحسب حياته ثمينة عنده لإنجاز هذا العمل، بل بذلها "و احتمل الصليب مستهينًا بالخزي" و هكذا الملائكة أيضًا، فانهم يسعون دائمًا في إسعاد الآخرين، و في عملهم هذا يجدون لذة و سرورًا، فالخدمة التي يحسبها كل محب لذاته بالعمل المشين له، خدمة التعساء الذين هم دونه أخلاقًا و مقامًا، إنما هي الخدمة التي يقوم بها ملائكة الله الاطهار، و روح المحبة الذي يقومون به بفرح و ابتهاج [59]

متى حلت محبة المسيح في القلب تكون فيه كالمسك الذي لا تخفى رائحة بائعه بل تفوح منه فتنعش كل من يقاربه، و متى ساد روح المسيح في القلب يكون فيه كالعين في القفر تفيض مياهها لتنعش المعي و تولد فيه الشوق إلى الاستقاء من ينبوع الحياة الأبدية

من مظاهر المحبة ليسوع أن يسعى المحب في النسج على منواله فيعمل عمله في إسعاد الناس، و من خصائصها أن تبدي العطف و الشفقة و المؤاساة لكل من تشمله العناية الإلهية الأبوية

لم يعش المخلص على الأرض عيشة الدعة و الراحة و لم ينهمك في خدمة نفسه، بل كانت حياته إجهادًا دائمًا و نضالاً دائبًا لخلاص المنكوبين الهالكين و لم يعرف من المذود إلى الجلجثة إلا التضحية و إنكار النفس، فلم يطلب يومًا العفو من واجب مضنٍ، و لم يحاول التخلص من وعثاء سفر، و لم يهرب من عمل شاق، إذ انه "لم يأتِ ليُخدم بل ليخدم و ليبذل نفسه فدية عن كثيرين" متى ٢٠ : ٢٨، فالخدمة كانت غاية حياته العظمى و الوحيدة، و ما عداها كان ثانويًا و مما يستخدم في سبيل بلوغ الغاية المنشودة، و لم يكن من شيء ليشبع نفسه و يروي ظمأه كعمل مشيئة الآب، حتى أن حياته خلت من الاثرة و محبة الذات خلوًّا تامًا مطلقًا

كل من يقبل نعمة المسيح فمثله يكون على استعداد للقيام بأية تضحية حتى يتسنى لجميع الذين مات عنهم يسوع أن يشتركوا في قبول الهبة السماوية، و انه يسعى أيضًا إلى جعل العالم، بفضل حياته فيه، احسن مما كان عليه، فمثل هذه الخدمة هي من الأثمار الطيبة التي يأتي بها المتجدد الحقيقي الذي إذ اقبل إلى المسيح تولدت في نفسه الرغبة في المناداة بالصديق الحميم الذي وجده و في إعلان الحق الذي خلصه و قدسه و الذي لا يمكن إخفاؤه في قلبه، لان الذي قد لبى برّ المسيح و امتلأ قلبه من فرح الروح لا يستطيع السكوت عما اختبره بعد أن ذاق و عرف "ما أطيب الرب"، كما فعل فليبس الذي إذ وجد المسيح ذهب توًّا و فتش عن نثنائيل و دعاه قائلاً : [60] تعال و انظر" و كذلك يحاول كل متجدد أن يعرض على الناس فضائل المسيح و أن يعرّفهم بغنى العالم غير المنظور و هو في ذلك يشتاق اشتياقًا عظيمًا إلى أن يرى الجميع فيه "حمل الله الذي يرفع خطية العالم"

لا شك في أن كل مسعى نبذله لإسعاد الآخرين يعود علينا بالبركات المضاعفة حسب قصد الله من إشراك الإنسان معه في إنجاز عمل الفداء، لأنه تعالى قد وهب للناس أن يصيروا شركاء الطبيعة الإلهية "و أن يعملوا، هم في دورهم، على إشراك بني جنسهم في هذه البركة. إن هذا لأسمى شرف و اعظم فرح يستطيع الله القدير أن يجود بهما على المخلوقات، فالذين يساهمون الله في أعمال المحبة هم إليه اقرب المقربين

كان من الممكن أن يسند الله الكرازة بالإنجيل إلى الملائكة السماوية و أن يكل اليهم أمر توزيع بركات المحبة، أو أن يستخدم وسيلة أخرى من الوسائل المتوفرة لديه لإنجاز مقاصده، و لكنه تعالى، اختارهم أن يكونوا هم العاملين معه و مع المسيح و الملائكة ليكون لهم أيضًا نصيب وافر من البركات و الأفراح و الرفعة التي تنجم عن هذه الخدمة الجليلة

و من بركات الشركة في آلام المسيح أنها تولد في قلب الشعور بروح المسيح، فالتضحية في الخدمة تقوّي الإنسان على الجود و الإحسان و توثق حلفه مع فادي الانام الذي افتقر و هو الغني لكي يستغني البشر بفقره، و ما لم يتم هكذا قصد الله في خلق الإنسان لا تكون الحياة بركة لصاحبها

إن خصصت نفسك لعمل كلّ ما يريده المسيح من تلاميذه، و سعيت إلى ربح النفوس الهالكة، لا بد من أن تشعر بحاجة إلى اختبار انجع و معرفة أوسع، لأنك تجوع و تعطش إلى البرّ و تتوسل إلى الله أن يقوّي إيمانك و يسقيك جرعات أغزر من ينبوع الخلاص، و أما المقاومة و الصعاب التي تلا قيها فإنها تقودك إلى درس كلمة الله و إلى المداومة على الصلاة فتنمو في نعمة المسيح و معرفته و تسعد باختبارات ثمينة غنية

إن التضحية في العمل لأجل الغير، التضحية الخالية من الاثرة، لتكسب [61] الأخلاق عمقًا و ثباتًا و جمالاً مسيحيًا، و تملأ القائم بها سلامًا و سعادة، و ترفع الأماني و تطهرها و لا تترك مجالاً للتراخي و الإهمال، لأنه من شأن الفضائل المسيحية أن تنمي قوى ممارسها و تمنحه بصيرة ثاقبة و إيمانًا وطيدًا متزايدًا و قدرةً مقتدرةً في الصلاة، فالروح القدس، إذ يعزف على أوتار النفس يخرج منها نغمًا يتجاوب مع النغمة الإلهية، و أولئك الذين يقفون حياتهم على السعي إلى نفع الآخرين إنما هم في الواقع يعملون على خلاص انفسهم

على أن الطريقة المثلى للنمو في النعمة هي أن نشتغل بإخلاص في العمل المفروض علينا، و أن نبذل قصارى جهدنا لمساعدة من هم في حاجة إلى معونتنا، فإنما تتزايد قوتنا، بالمران و العمل، لان النشاط هو من مستلزمات الحياة و ضروراتها، فأولئك الذين يسعون إلى المحافظة على الحياة المسيحية بقبولهم البركات التي تأتيهم عن طريق وسائط النعمة، دون أن يعملوا شيئًا لأجل المسيح، مثلهم كمثل من يحاول أن يأكل دون أن يشتغل أو يعمل. فهذه الحالة، تأثيرها الروحي كتأثيرها الطبيعي، لأن الإنسان الذي يرفض أن يستخدم أعضاءه لا بد من أن يفقد القدرة على استعمالها، و لذلك فان المسيحي الذي لا يستخدم القوى المعطاة له من الله لا يتوقف فقط عن النمو بل هو يفقد القوة التي كانت له

و قد جعل الله كنيسة المسيح أداة لتخليص البشر، و وكل إليها مهمة تبليغ الإنجيل في كل أنحاء العالم، فهذه المسؤولية ملقاة على عاتق المسيحيين أجمعين، و يتعين على كل إنسان أن يعمل على تحقيق هذه المهمة بحسب ما يتيسر له من الفرص و المواهب، لان المحبة التي أعلنها لنا المسيح، تجعلنا مديونين لكل الذين لم يعرفوا المخلص بعد، إذ أن الله قد وهبنا نورًا، لا لكي نستأثر به لأنفسنا، بل لنضيء به على الآخرين

فلو أن اتباع المسيح كانوا متنبهين لواجبهم و حريصين على أداء مهمتهم، لكان الذين يقومون اليوم بنشر رسالة الإنجيل في البلاد الوثنية يُعدّون بالألوف بدلاً من الآحاد القلائل الذين يعملون اليوم، و لكان

أولئك الذين [62] لا يستطيعون أن يندمجوا في سلك العمل التبشيري بأنفسهم يخدمون قضية المسيح بأموالهم، و عطفهم، و صلواتهم، و لوجدنا في البلدان المسيحية، غيرة اكثر و اجتهادًا لربح النفوس

و لسنا في حاجة إلى أن نذهب إلى تلك الأقطار الوثنية البعيدة لنخدم المسيح، أو نغادر محيطنا الضيق الذي نعيش فيه، إن كان هو المكان الذي يجب علينا أن نعمل فيه، فنستطيع أن نخدم و نحن في المحيط العائلي، و في الكنيسة، و نستطيع أن نخدم أيضًا بين من نخالطهم و نزاملهم و نعمل معهم

قضى مخلصنا الشطر الأكبر من حياته، و هو يعمل في حانوت نجار بمدينة الناصرة، و قد كانت الملائكة تخدمه، و هو يسير جنبًا إلى جنب مع الفلاحين و العمال الذين لم يلقوا عليه بالاً و لم يعيروه التفاتًا، و كان يؤدي رسالته بكل صبر و أمانة في حرفته المتواضعة، كما كان يؤديها و هو يشفي مريضًا، أو و هو يمشي على بحر الجليل الهائج المائج، و هكذا يوكن لكل إنسان أن يكون في خدمة يسوع، وهو يمارس أوضع الحرف و احقر الأعمال

و لذلك يقول الرسول، "ما دُعي كل واحد فيه أيها الإخوة، فليلبث في ذلك مع الله"، ١ كورنثوس ٧ : ٢٤، فالتاجر يستطيع أن يدير عمله بكيفية تمجد سيده، إذا راعى الأمانة في شغله و جعل ديانته تتخلل كل معاملاته، و اظهر روح المسيح في كل تصرفاته، و الصانع يمكنه أن يكون مجدّا و أمينًا، ممثلاً سيده الذي كان يكدح، مؤديًا رسالته في ابسط الأعمال و اصغرها، و هكذا يجب على كل من يسمي اسم المسيح، أن يؤدي عمله، على الوجه الذي يقود الآخرين إلى تمجيد خالقهم و فاديهم

غير أن الكثيرين يعتذرون عن تقديم خدماتهم للمسيح، بحجة انهم ليسوا كغيرهم ممن خصهم الله بمزايا عظمى، و مواهب ممتازة، حتى لقد ساد عند بعضهم الاعتقاد بأن التكريس للخدمة يستلزم كفاءات نادرة و مؤهلات خاصة لا تتوفر إلا في فئة قليلة من الناس الذين خصهم الله دون سواهم بالمساهمة في الخدمة و الجزاء، و لكن هذه الفكرة لا تتوفر و المثل الذي [63] ضربه المسيح، إذ أوضح "أن رب البيت دعا عبيده، و أسند إلى كل واحد منهم عمله الخاص"، مرقس ١٣ : ٣٤

فان كان لنا روح المحبة، يمكن أن نؤدي احقر واجبات الحياة، "من القلب كما للرب"، كولوسي ٣ : ٢٣، و إذا كانت محبة الله في قلوبنا، فإنها تتجلى في حياتنا، فتنبعث منا رائحة المسيح الزكية، و يكون تأثيرها في الآخرين عاملاً على رفعتهم و إسعادهم

فما عليك أن تنتظر حتى تتهيأ لك فرص عظيمة، تحصل على مواهب خارقة العادة لكي تستطيع أن تخدم الله، و لا يجب أن تكون مشغولاً بما يفتكر به العالم عنك، لأنه إذا كانت حياتك تشهد بطهارة إيمانك، و إخلاص بواعثك، و شدة رغبتك في خدمة الناس و نفعهم، فان جهودك لن تضيع هباءً

و هكذا يستطيع افقر إنسان و احقر مخلوق من تلاميذ يسوع أن يكون بركة للآخرين، و قد لا يشعر بانه يأتي عملاً يذكر في هذه الحياة، و مع ذلك فانه بتأثيره الخفي يحدث نتائج بعيدة المدى، إذ تتبارك، بسبب حياته و قدوته جموع غفيرة من الناس، و ربما يظل غير شاعر بمثل هذا التأثير في حياة الآخرين حتى ذلك اليوم الذي يكافأ من الله، فأمثال هذا لا يشغلون انفسهم بمدى النجاح الذي يمكن أن يصيبوه، و إنما هم يسيرون في هذه الحياة قُدُمًا، مؤدين عملهم في هدوء و أمانة، بحسب الدعوة التي دعوا إليها، فهؤلاء لن يضيعوا حياتهم سدى، بل هم سيظلون في نمو مطرد حتى يصبحوا مشابهين لصورة المسيح و مثاله، و إذ هم عاملون مع الله في هذه الحياة، فهم بذلك إنما يهيئون انفسهم لذلك العمل الأسمى، و الفرح الخالص المعدَّين لهم في الحياة الأخرى [64]

التعرُّف بالله

كثيرة هي الطرق التي بها يطلب الله أن يقودنا إلى معرفته، و إلى الوئام و الشركة معه، فهذه الطبيعة التي تناجي مدركاتنا اناء الليل و أطراف النهار تؤثر في كل قلب مفتوح و تهمس في كل أذن صاغية مخبرة بمحبة صانعها و معلنة مجده، فكأني بالحقول الخضراء و الأشجار الباسقة، و بالسحب المارة و الغيوث السارة، و بخرير السيل و جمال السماء و هي تحدثنا عن خالقها و تدعونا [65] إلى التعرف به

لقد مثل مخلصنا تعاليمه بما في الطبيعة، و قارن الحقائق الأبدية الثمينة التي نطق بها بالأشجار و الأطيار و بزهور الوهاد و كروم النجاد، و بالبحيرات الرائقة و السماوات الرائعة، و ألحقها بحوادث الحياة العادية و أحوالها اليومية لكيلا تغرب عن ذاكرة سامعيه بل يتعظوا بها وسط انهماكات الحياة و أتعابها الكثيرة

يريد الله أن يستمع أولاده بحسن صنعته و يبتهجوا بالجمال البسيط المحتشم الذي زين به مسكننا الأرضي هذا، لان الله يحب الجمال، و لا سيما جمال الأخلاق الذي يفضله على كل زينة خارجية مهما كانت، و يشتاق إلى أن يرانا مرتدين جمالاً كجمال الزهور الهادي العجيب

لو تأملنا أعمال الله لتعلمنا منها دروسًا ثمينة في الطاعة له و الاتكال عليه، من كل ما في الطبيعة من الأجرام الفلكية الكبيرة التي على مدى الأجيال تتبع مداراتها المتسعة المعينة لها، و كل ما في الكون من ذرات صغيرة أيضًا، تطيع إرادة خالقها وهو يعتني بها و يقوم بحاجتها، و إن الذي يحمل العوالم الكثيرة السابحة في الفضاء الفسيح، هو الذي يعتني أيضًا بالعصافير التي تغرّد تمجيدًا لخالقها بلا خوف أو وجل، وهو الذي يهيمن على العامل إذ يخرج لعمله اليومي كما يهيمن عليه في المخدع و في أثناء رقاده و حين قيامه من النوم، و انه لا يفتأ يراقب الغني إذ يولم في قصره الولائم الفاخرة كما يراقب الفقير إذ يجمع أولاده حول مائدته الحقيرة ليقاسمهم خبزه الحاف، فليس من دمعة تذرف إلا و يراها الله، و ليس من ابتسامة إلا و يلاحظها بشوق و اهتمام

لو آمنا بهذه القدرة و وثقنا بهذه العناية لطرحنا عنا كل اهتمام زائد و لأبعدنا عنا كل خيبة أمل، بل و تركنا جميع أمورنا صغيرة أكانت أم كبيرة، بين يدي القدير الذي لا تحيره كثرة العناية و لا يثقله تعب الرعاية، و لكنا نمتع نفوسنا بالراحة التي طالما اشتقنا إليها [66]

إذ تبتهج مداركك بجمال الأرض الخلاَّب اجتهد أن تتصوَّر في مخيلتك الأرض الجديدة التي لا تشوبها خطية و لا تمتد إليها سلطة الموت و لا يظهر عليها ظل اللعنة، ثم إذا بلغت الحد في تصوّرك اعلم أنها ستكون اجمل و امجد بكثير من كل تصوّراتك، لأنك لا تستطيع أن ترى الآن، مع تنوّع عطايا الله، إلا لمحة خاطفة من مجده السني، كما هو مكتوب "ما لم ترَ عين و لم تسمع أذن و لم يخطر على بال إنسان ما اعده الله للذين يحبونه"، ١ كورنثوس ٢ : ٩

قد يفصح الشعراء في وصف جمال الطبيعة و يبالغ العلماء في الكلام عن غرائبها، و أما الذي يتمتع

بها تمتعًا مشبعًا فهو المؤمن لأنه يرى فيها عمل يد أبيه و يميز دلائل حبه تعالى في زهورها و أشجارها و أثمارها. و أما الذي لا يميز محبة الله في النجاد و الوهاد، و في الأنهر و الأبحر، فلا يعرف معناها و لا تناجيه بما تكنه له من محبة و عناية

يكلمنا الله أيضًا في عنايته بنا و يناجينا بفعل روحه القدوس فينا، فان حوادث الحياة و التقلبات التي نشاهدها من يوم إلى يوم، لو فطنا لها، لتعلمنا عن محبة بارينا، كما انشد المرنم في ذلك واصفًا العناية الإلهية الدائمة قائلاً، "امتلأت الأرض من رحمة الرب" و "من كان حكيما يحفظ هذا و يتعقل مراحم الرب" مزمور ٣٣ : ٥ و ٧ و ١ : ٤٣

يخاطبنا الله كذلك في كلمته المنزلة، و فيها يعلن صفاته بصيغة واضحة جلية إذ يعرفنا فيها بأعماله العظيمة في فداء الإنسان و يسرد أمامنا تاريخ الآباء و الأنبياء القديسين الذين كانوا تحت الآلام مثلنا و جاهدوا في أحوال كأحوالنا الصعبة، و ولوا هاربين منهزمين مثلنا، ثم عادوا و تشجعوا و انتصروا بنعمة الله، و نحن إذ نراهم نتشجع أيضًا في سعينا وراء البر، و إذ نقرأ عن اختباراتهم الثمينة و تمتعهم بالنور و المحبة و البركة، و عن العمل الذي قاموا به بنعمة الله و عن الروح الذي اظهروه، يضطرم في قلوبنا لهيب الاشتياق إلى أن نقتدي بهم و أن نكون مثلهم و أن نسير مع الله كما ساروا معه

قال يسوع عن كتب العهد القديم أنها "هي التي تشهد لي"، يوحنا ٥ : ٣٩، [67] و ما قاله عن العهد العتيق يصدق بالأحرى عن كتب العهد الجديد، لان الكتاب المقدس كله لا يخبرنا إلا بالفادي الذي بدونه يكون الجنس البشري الهالك عديم الأمل في الحياة الأبدية. إن المسيح هو موضوع إعلان الله، فمن الكلمة الأولى، "في البدء خلق الله السموات و الأرض" إلى الأخيرة في الرؤيا "ها أنا آتي سريعًا" لا تقرأ إلا عن أعماله و لا تسمع إلا صوته، فإذا أردت أن تتعرَّف بيسوع عليك بقراءة الكتب المقدسة

املأ قلبك إذن بكلمة الله، لأنها الماء الحي الذي يروي لظى عطشك كما و أنها الخبز الحي من السماء الذي يشبع فرط جوعك، و لقد صرح يسوع بذلك قائلاً "إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان و تشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم" يوحنا ٦ : ٥٤، ثم اردف موضحًا معناه "الكلام الذي أكلمكم به هو روح و حياة"، عدد ٦٣، فكما أن أجسادنا تتغذى و تبنى مما نتعاطاه من مأكل و مشروب، كذلك أرواحنا أيضًا، فإنها تستمد قوة و شجاعة مما نتأمل فيه من الأمور الروحية الأبدية

إن موضوع الفداء العجيب لموضوع "تشتهي الملائكة أن تطَّلع عليه" وهو سيكون موضوع دراسة المفديين و موضوع ترنمهم و تهللهم مدى الدهور الأبدية. إذن أفليس هو الآن جديرا بالتفكير العميق و الاعتبار الجدي الدقيق؟ بلى، لان محبة المسيح و رحمته و تضحيته العظيمة من اجلنا لتستلزم أعمق التأمل و أوفر التفكير، بل و يجب أن نطيل التبصر في صفات فادينا و شفيعنا و نديم النظر في رسالة ذاك الذي أتى ليخلص شعبه من خطاياهم فان التأمل في هذه المواضيع السماوية يقوي محبتنا و يزيد إيماننا و يملأنا ثقة و محبة، فتصعد صلواتنا إذ ذاك مقبولة عند الله لأنها تصدر عن ذهن مستنير و عاطفة مضطرمة و ثقة ثابتة بيسوع و اختبار حي في قوّته القادرة أن تخلص "إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله" [68] [69]

عندما نتأمل مليًا في كمالات المخلص يتولد فينا شوق شديد إلى تغيير كامل و تجديد شامل لنشترك في قداسته و طهارته، ذلك لأننا نزداد جوعًا و عطشًا إلى التشبه به، حتى إذا صار الفادي الموضوع الشاغل في أفكارنا نلهج به في كلامنا و نظهره للعالم في حياتنا و أعمالنا

هذا و ليست الكتب المقدسة للعلماء فقط، بل قد خصصت أيضًا لعامة الناس و جاءت فيها الحقائق العظمى بشأن الخلاص واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار حتى لا يخطئ احد الطريق و لا يضلّ عن سواء السبيل إلاّ من استقلَّ برأيه و حاد عمدًا عن مشيئة الله المعلنة الجلية

يجب ألا نكتفي من شهادة إنسان ما بما يقول الكتاب المقدس، بل يجب أن نطالع كلمة الله بأنفسنا، لان اتكالنا على دراسة غيرنا يفلّ نشاطنا و يميت مواهبنا و يضعف فينا القوى العقلية الثمينة التي لا تنمو إلا باستخدامها في مواضيع سامية يتطلب استيعابها مجهودًا عظيمًا متوصلاً، و إذا حدث ذلك نفشل في إدراك معنى كلمة الله، أن العقل إذا استعمل في درس مواضيع الكتب المقدسة و في مقابلة الآية بالآية و مقارنة الروحيات بالروحيات ليتّسع اتساعًا عجيبًا بينًا

ليس ما يقوّي الإدراك مثل درس كلمة الله، و ليس ما يرفع الأفكار و يكسب العقل حذاقة مثل التأمل في الحقائق الكتابية العميقة المهذبة، فلو درس الإنسان الكلمة كما يجب لوجد فيها سعة عقل و سمو أخلاق و ثبات عزم قلما نراها في هذه الأيام

على أن الفائدة من قراءة الكتاب المقدس قراءة عاجله بدون ترو ضئيلة جدًا، فقد يقرأ المرء الكتاب كله، من التكوين إلى الرؤيا، و لا يرى شيئًا من جماله و لا يسير شبرًا من غوره، و أما إذا أطال التأمل في آية واحدة فقط إلى أن أدرك معناها و فهم مغزاها في تدبير الخلاص فيستفيد اكثر [70] بكثير مما لو تلا فصولاً عديدة دون هدف و لا منفعة، إذن خذ كتابك معك و اقرأ فيه كلما وجدت لذلك فرصة سانحة، و استذكر آياته التي تقرأها، لأنه من الممكن أن يتأمل في الآيات و انت ماشٍ في الشارع فتثبتها في ذاكرتك

إننا لن نصير ذوي حكمة إلا إذا اعرنا الكتاب المقدس التفاتًا جديًا و درسناه دراسة مصحوبة بالصلاة، لأنه، و إن كان في الكتاب فصول لا يخطئ احد في فهمها إلا أن فيه أيضًا فصولاً ذات معنى عميق بعيد الغور، لا يسهل فهمها لأول وهلة، فيجب إذن مقارنة الآيات بالآيات مع توخي الدقة في البحث و التعميق في التفكير و الصلاة، و بذلك تعود علينا دراسة الكتاب المقدس بالخير العميم و النفع الجزيل، فكما يبحث المعدّن عن الأحجار الثمينة في جوف الأرض، هكذا يجب أن ننقب في كلمة الله عن كنز ثمين حتى نجد فيها حقائق ذات قيمة عظمى مما قد أخفي عن عيون كثيرين من الذين يقرؤون الكتاب قراءة عجلى، فان كلمة الوحي إذا وعيناها في قلوبنا و تدبرناها كانت بمثابة جداول تتدفق من ينبوع الحياة

و حذار من الإقدام على دراسة الكتاب دون أن تستعين بالصلاة، فقبل أن تتصفحه يجب أن تطلب الاستشارة من الروح القدس، و متى طلبت فلا بد من أن تنال، فان يسوع حين رأى نثنائيل مقبلاً إليه قال عنه "هو ذا إسرائيلي حقًا لا غش فيه، فقال له نثنائيل من أين تعرفني، أجاب يسوع و قال له قبل أن دعاك فيلبس و انت تحت التينة رأيتك" يوحنا ١ : ٤٧ و ٤٨، فيسوع الذي رأى نثنائيل وهو يصلي تحت التينة يراك أيضًا و انت تصلي في مخدعك إن كنت تتلمس منه النور لمعرفة الحق بل إن ملائكة النور انفسهم سيرافقونك و يأخذون بيدك إن كنت تطلب الهداية و الإرشاد بروح الاتضاع و الانقياد

إن عمل الروح القدس هو أن يعظم المخلص و يمجده إذ ان الروح هو [71] الذي يقدم لنا المسيح و برّه و خلاصه كما قال يسوع عنه "ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي و يخبركم" يوحنا ١٦ : ١٤، فإنما روح الحق دون سواه هو المعلم المؤثر الفعّال الذي يستطيع أن يعلمنا الحق الإلهي

فيا لعظم تقدير الله لجنسنا البشري، إذ أعطانا ابنه ليبذل حياته لأجلنا و وهبنا الروح القدس ليكون معلمنا و مرشدًا لنا

الصّلاة

نعم يكلمنا الله في الطبيعة و في الوحي، و يناجينا بأعمال العناية و بتأثير الروح القدس فينا، و لكن هذا كله لا يكفي، بل، لكي تكون لنا حياة إلهية و قوة روحية، يلزم أن نفيض له بمكنونات صدورنا، و نحادثه عن جميع أمورنا، فقد تنجذب إليه عواطفنا، وقد نتأمل أعماله و مراحمه و بركاته دون أن نكون قد تحدثنا إليه بالمعنى الحقيقي، فلكي يكون بيننا و بين الله تحادث يجب أن نخبره، في صلاتنا إليه، بما في حياتنا من واقعيات

إن الصلاة هي فتح القلب لله كما لو كنا نكلم صديقًا حميمًا، و ليست هي [73] ضرورية لنعلم الله بما نحن عليه، و لكنها ضرورية لأنها تقدّرنا نحن على قبول نعمته، إذ أنها تنزل لله إلينا، و لكنها ترفعنا إليه تعالى

علم يسوع تلاميذه كيف يصلون و ارشدهم إلى أن يعرضوا حاجاتهم اليومية لله، و يلقوا كل همهم عليه، و أكد لهم أن طلبتهم تستجاب، و ما قاله لهم قاله لنا نحن أيضًا

و يسوع نفسه، وهو حال بين الناس، كان يصلي كثيرًا، فإذ اتحد بنا، و صارت حاجاتنا حاجاته و ضعفاتنا ضعفاته، تضرع إلى الآب لينال منه قوة جديدة و ليخرج متشددًا لمواجهة واجبات اليوم و تجاربه، وهو في كل شيء مثالنا، كما و انه أخ لنا في ضيقاتنا، "مجرب من كل شيء مثلنا" و لكنه مع ذلك هو القدوس الذي نفرت نفسه من الإثم و قاسى فيها صراعًا و عذابًا أليمًا وهو في عالم الخطية، فجعلت بشريته الصلاة ضرورية له، بل لذة و امتيازًا، و وجد في التحدث إلى الآب فرحًا و عزاءً، فإذا كان مخلص الناس، ابن الله الحبيب، قد شعر بحاجة إلى الصلاة، فكم هو اجدر بنا نحن الضعفاء و الأثمة المائتين أن نشعر بحاجتنا إلى الصلاة الحارة المستديمة

يترقب أبونا السماوي الفرص ليغمرنا ببركاته، و انه لمن ميزاتنا أن نشرب جرعات مشبعة من ينبوع محبته، فما اغرب قلة صلواتنا إليه. إن الله لمستعد و راضٍ أن يسمع الصلاة الخالصة الصاعدة من أوضع أولاده، و مع ذلك نرى بيننا ترددًا ظاهرًا في إعلامه حاجاتنا، و ماذا يظن الملائكة في أناس مساكين ضعفاء معرّضين لتجارب قوية و هم على رغم ذلك لا يصلون إلا قليلاً، و لا يؤمنون إلا يسيرًا! و أما الله فانه مشتاق اليهم، راغب في أن يهبهم اكثر جدًا مما يتصورون. و ها الملائكة يسرّون بالسجود أمام الله و يحبون القرب منه تعالى و يتلذذون بالتحادث إليه و لكن أولاد آدم، و هم في مسيس الحاجة إلى عونه تراهم مكتفين بان يسلكوا بدون نور الروح القدس و بدون مرافقته لهم و حضوره معهم

يرخي الشرير سدول ظلامه على الذين يسهون عن الصلاة و يغريهم [74] على الخطية إذ يهمس في قلوبهم بوسوسته، ذلك لأنهم لا يستغلون حقوقهم التي انعم بها الله عليهم في الصلاة، و لماذا يحجم بنو الله عن الصلاة وهي المفتاح في يد الإيمان به يفتحون خزائن السماء المذخر فيها و فوز غنى القادر على كل شيء؟ و إن لم ندأب في الصلاة و نجاهد في السهر نعرض انفسنا لخطر الإهمال فالحيدان عن الصراط المستقيم، لان العدو يسعى سعيًا متواصلاً ليضع العراقيل في الطريق المؤدي إلى عرش النعمة

و يمنعنا من الحصول على النعمة و القوة لمقاومة التجارب بواسطة الإيمان و الصلاة

اجل يشترط الله شروطًا معنية لا بد من ايفائها ليستمع لدعائنا و يجيبنا إلى طلباتنا، ، أولها أن نشعر بحاجتنا إلى معونته، فقد وعد قائلاً "اسكب ماء على العطشان و سيولاً على اليابسة"، اشعياء ٤٤ : ٣، فالذي يجوع و يعطش إلى البر و يشتاق إلى الله، لا بد من إشباعه، و لكن يجب أن يكون قلبه مفتوحًا لتأثير الروح القدس و إلا فالبركة لا تأتيه

إن أقوى حججنا لنيل البركات هي نفس حاجتنا إليها، فإنها تشفع فينا بأفصح العبارات، إلا انه يجب علينا أن نطلب من الله أن يعمل لأجلنا، كما قال "اطلبوا تجدوا"، و "الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا معه كل شيء" رومية ٨ : ٣٢

إن راعينا إثما في قلوبنا، أو تمسكنا بخطية واحدة معلومة لدينا، لا يستمع لنا الرب، و لكنه في كل وقت يقبل صلاة النفس التائبة المنسحقة، فيحق أن نؤمن بان الرب قد سمع و انه ليستجيب صلواتنا، لأننا و نحن خطاة قصار البصر، كثيرًا ما نطلب ما هو لضررنا، و إلا أبونا السماوي فحبًا لنا و رفقًا بنا يستجيب صلواتنا بان يعطينا ما هو لخيرنا الأكبر و ما كنا لنطلبه لأنفسنا لو استنيرت أذهاننا و عرفنا الأمور على حقيقتها، فعندما يبدو لنا أن صلواتنا غير مستجابة يجب أن نتمسك بالوعد، لأنه لا بد من أن يأتي وقت الاستجابة و ننال البركة التي نحن في اشد الحاجة إليها، و أما الادعاء بان صلواتنا تستجاب بالكيفية التي نعيّنها نحن و في ذات الشيء الذي نطلبه فهو تطفل، بل تصلف، لان الله احكم من أن يخطئ و أصلح من أن يمنع [75] خيرًا عن السالكين بالكمال، فلا تخشَ الاتكال عليه حتى إذا كنت لا ترى الجواب فورًا عما طلبت، بل ثق بالوعد الأكيد القائل "اسألوا تعطوا" متى ٧ : ٧

أما ذا أخذنا بمشورة شكوكنا، و سرنا على رأي مخاوفنا، و أردنا أن نحل كل معضلة قبل أن نؤمن بالله، فلا نزداد إلا حيرة و ارتباكًا، و لكن إذا أتينا إليه شاعرين بنقصنا و قصر باعنا، و بإيمان وديع و ثقة ثابتة أعلمناه بحاجتنا، وهو العليم بما في السماء و على الأرض، و يرى كل ما في الخليقة و يسير كل شيء بكلمته و بحسب إرادته ـ فهو القادر أن يسمع دعاءنا و ينير قلوبنا، و هكذا بصلواتنا المخلصة نصير على اتصال بفكر القادر على كل شيء، و قد لا نرى دليلاً قاطعًا على أن المخلص يحنو علينا و يحبونا برحمته و محبته، و قد لا نحس بلمسة يده على جباهنا في رفق و حنان، و مع ذلك هذه هي الحقيقة الراهنة

و إذ نأتي إلى الله لنطلب منه رحمة و غفرانًا يجب أن يملأ قلوبنا روح التسامح و المحبة للآخرين، و كيف يمكننا أن نصلي قائلين "و اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا" ما دام فينا روح الانتقاد و عدم الاغضاء؟ فانه على قدر ما نتوقع أن يسمع لنا الله و يسامحنا، على هذا القدر عينه يجب أن نصفح نحن للآخرين و نسامحهم

جعل الله المثابرة على الصلاة شرطًا لاستجابتها، فقد امرنا أن نصلي بلا انقطاع لكي نتقوى في الإيمان و نتقدم في الاختبار، فأمر أن "نواظب على الصلاة"، و أن نسهر "فيها بالشكر"، و نتعقل و نصحو "للصلوات"، و "في كل شيء بالصلاة و الدعاء مع الشكر لتعلم طلباتنا لدى الله" "و انتم أيها الأحباء... مصلين في الروح القدس احفظوا أنفسكم في محبة الله"، رومية ١٢ : ٢٠ و كولوسي ٤ : ٢ و ١ بطرس ٤ : ٧ و فيلبي ٤ : ٦ و يهوذا ٢٠ و ٢١. في المواظبة على الصلاة تتحد النفس بالله اتحادًا لا ينفصم عراه فتجري حياة من الله إلينا، و ترجع إليه تعالى لمجد اسمه في طهارتنا و قداستنا

إن المثابرة على الصلاة لضرورية حيوية، فيجب ألا يعوقك عنها شيء، بل ابذل الجهد لتكون نفسك على اتصال دائم بيسوع، و اغتنم كل فرصة [76] تسنح للذهاب إلى حيث تجري العادة أن تكون صلاة، لان الذي يطلب محادثة الله تراه في اجتماع الصلاة قائمًا بواجبه، مهتمًا به، مجدًّا في الحصول على كل

بركة و فائدة، ملتمسًا أن يكون حيث تضيء عليه الأشعة السماوية

يجب أن نصلي في دائرة العائلة، و لكن الصلاة الانفرادية هي اكثر الصلوات حياة للنفس و قوة لها، فإذا ما أهملت تذبل النفس و لا تستطيع أن تزهو و تثمر، و لا تغني الصلاة العائلية أو الصلاة العمومية في المجتمع عن الصلاة الانفرادية في المخدع، إذ أننا نحتاج أن نعرّي نفوسنا أمام الله على انفراد و أن نصعد ابتهالاتنا إلى أذني رب الجنود حيث لا تسمعها أذن بشرية، و النفس في المخدع تكون بعيدة عن كل تأثير خارجي و في معزل عن كل ما قد يثير الحواس أو يهيج العواطف، فتتلمس الله بهدوء و حرارة عظيمين، و ما أحلى البركات المنبثقة حينئذٍ من الذي يرى في الخفاء و يسمع كل صلاة تصعد من صميم الفؤاد، و هكذا، بالإيمان البسيط الهادئ، تتمسك النفس بقوة الله و تجمع لذاتها أشعة نوره لتسندها في محاربتها الشيطان الرجيم، إن الله لبرجها الحصين

فصلِ إذن في مخدعك، و ليكن قلبك مرفوعًا إلى الله، و انت تباشر أعمالك اليومية، لأنه هكذا سار اخنوخ مع الله، و مثل هذه الصلوات الصامتة تصعد أمام عرش النعمة كالبخور العطر، و لن يغلب الشيطان أبدًا الإنسان الذي يستند على الله هكذا في قلبه

و ليس من مكان أو زمان لا يليق رفع الطلبة إلى الله فيهما، و ليس من مانع يستطيع أن يمنعنا من التوجه إليه في قلوبنا في روح الصلاة الحارة طالبين في شوارع المدينة المزدحمة أو في وسط صفقة تجادية، الإرشاد الإلهي، كما فعل نحميا و هو ماثل في حضرة الملك ارتحشستا، لأننا حيثما كنا فنحن مع الله كما في مخدع، و قلوبنا مفتوحة تدعو يسوع أن يمكث فيها ضيفًا كريمًا محبوبًا

و لئن كنا محاطين بجو فاسد مميت، لا يتحتم علينا أن نستنشق هواءه [77] المفسد، بل في إمكاننا أن نحيا في جو السماء النقي المنعش بان نوصد كل باب في وجه التصورات النجسة و التفكرات الدنسة، و نرفع قلوبنا إلى الله في صلاة خالصة، فالذي يرفع نفسه إلى الله لقبول عونه و بركته يسير في جو أقدس من الذي يحيط بالأرض، و يتصل بالسماء اتصالاً وثيقًا دائمًا

من حاجاتنا الماسة أن نرى يسوع رؤية أجلى و أوضح و أن ندرك الأمور الأبدية إدراكًا اكمل و اصرح، فيجب أن تملأ زينة القداسة حياة أولاد الله، و لا يتم لهم هذا إلا إذا طلبوا إعلان الأمور السماوية إعلانًا إلهيًا جليًا

فلتنجذب النفس إلى فوق ليمنحها الله أن تتنسم نسيم السماء، لأنه في إمكاننا أن نعيش قريبًا من الله حتى تتجه أفكارنا إليه إذا داهمتنا تجربة كما تتجه زهرة الأقحوان نحو الشمس على الدوام

اعرض حاجاتك و أفراحك و أحزانك و همومك و مخاوفك أمام الله بصورة دائمة، فانه لا يقلق من كثرتها و لا يملّ من عددها، فالذي يحصي شعر رؤوسنا، ألا يهتم بحاجات أولاده؟ بلى. "الرب كثير الرحمة و رؤوف" يعقوب ٥ : ١١، و قلبه المحب يتأثر من أحزاننا حتى من ذكرها له، فاذهب إليه بكل ما يحير فكرك واثقًا أن الذي يحمل العالمين بكلمته و يسير الكواكب حسب إرادته لا يعظم عليه أمر، و لا يستصغر أمرًا ما حتى لا يعيره التفاتًا، فليس في اختباراتنا فصل لا يستطيع أن يقرأه و لا في حياتنا معضلة لا يعرف حلها، و لا تصيب احد أولاده الأصاغر نكبة، و لا يبهجهم فرح، و لا يساورهم خوف، و لا تصعد صلاة خالصة من شفاههم، إلا و يعلم بها أبونا السماوي و يهتم لهم بها، فهو "يشفي المنكسري القلوب و يجبر كسرهم" مزمور ١٤٨.، و يعامل كل نفس معاملة فارقة كاملة كانها هي الوحيدة التي بذل ابنه لأجلها

قال يسوع "في ذلك اليوم تطلبون باسمي، و لست أقول لكم أني اسأل الآب من أجلكم لان الآب نفسه يحبكم" و "أنا اخترتكم... و لكي يعطيكم الآب كل ما طلبتم باسمي"، يوحنا ١٦ : ٢٦ و ١٥ : ١٦، [78] و لكن الطلب باسم يسوع لا يعني مجرد ذكر اسمه العزيز في مستهل الصلاة أو في ختامها، بل يعني أن

يكون فينا فكر المسيح و روحه و أن نكون مؤمنين بمواعيده، متكلين على نعمته و ممارسين أعماله

و إذ يطلب الله منا أن نعكف على التعبد و الصلاة، فهذا لا يعني أن نعتزل هذا العالم و نلجأ إلى الأديرة و الصوامع لكي نحيا حياة الترهب و التنسك، بل يجب أن نكون مقتدين بيسوع الذي كان يقضي يومه بين الاختلاء في الجبل و خدمة الجمهور، فمن يحاول أن يقضي الوقت كله في الصلاة لا يلبث أن يهجرها أو يأتيها كمجرّد فرض عليه، ذلك أن الإنسان عندما ينتزع نفسه من حياة المجتمع و يتناءى عن الواجب المسيحي و يتهرّب من حمل الصليب، تفتر همته و يخمد نشاطه في خدمة سيده و تصير صلاته بدون هدف و بدون باعث و تصبح طلباته مقتصرة على ذاتيته و محصورة في دائرة أنانيته، فلا يصلي لأجل حاجات البشر عامة أو لأجل تقدم ملكوت الله أو للحصول على قوة لكي يخدم ربه خدمة ناجعة مقبولة

إننا إن أهملنا واجب المعاشرة و اغفلنا تشجيع و تقوية بعضنا البعض على المضي في خدمة الله، نخسر خسارة أية خسارة إذ تفقد الحقائق الإلهية قوتها على إحياءنا، و تقلّ أهميتها في نظرنا، فلا تؤثر بعد في أفكارنا لانارتها و تقديسها، فننحط انحطاطًا روحيًا متواليًا، هذا و إن لم يصر بيننا و بين بعضنا عطف متبادل نخسر ميزات المعاشرة و فوائدها، لان الذي يعيش بمعزل عن الناس و ينطوي على نفسه لا يملأ المقام المعين له من الله، ففينا غرائز تميل إلى المخالطة و يكسبنا إنماءها عطفًا على الآخرين و تقدمًا في خدمة المولى و قوة على إرضائه

لو كان المسيحيون يجتمعون للتحادث عن محبة الله و عن الفداء العظيم و الحق الثمين لشرحوا بذلك خواطرهم و انعشوا بعضهم بعضًا، لأنه في إمكاننا أن نتقدم كل يوم في معرفة الله و نختبر اختبارات جديدة في نعمهِ، و إذ ذاك [79] نرغب في التكلم عن محبته و تلتهب قلوبنا فينا و نتشجع، فلو زدنا في التحادث عن يسوع و قللنا من التكلم عن انفسنا لتمتعنا بدوام حضوره معنا و حلوله بيننا

لو كان تفكرنا في الله يعادل ما نراه من الدلائل على عنايته بنا لكنا نفكر فيه على الدوام و نسرّ بالتكلم عنه و نلهج بحمده، إننا نتحادث عن الأمور الزمنية لأننا نهتم لها، و نذكر أحباءنا لأننا نحبهم و نرتبط بهم و لأنهم علة أفراحنا و أتراحنا، بيد أن أسباب محبتنا لله كثيرة لا تقاس، فيجب أن يكون غريزيًا فينا أن نجعله الأول في أفكارنا لنذكر حسناته و نخبر بقوته، و لم يكن القصد من هباته الغنية التي يجز لها علينا أن نستغرق فيها و نستهويها حتى لا يكون لنا وقت للتفكير في واهبها، بل كان القصد منها أن تربطنا به تعالى برباط المحبة و الامتنان الشديدين، و لكننا نسكن في الحضيض، فلنرفعنَّ اعيننا إلى باب المقدس السماوي المفتوح حيث نرى مجد الله المضيء من وجه يسوع المسيح "القادر أن يخلص أيضًا إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله" عبرانيين ٧ : ٢٥

يلزم أن نكثر الحمد "على رحمته و عجائبه ابني آدم"، مزمور ١٠٧ : ٧ و ألا تقتصر عبادتنا على الطلب و الأخذ، و ألا نفكر دائمًا في حاجاتنا و نغض الطرف عما بين ايدينا من النعم و البركات، لأننا، و إن كنا لا نصلي اكثر مما يلزم و إنما نبخل في تقديم الشكر اللائق، نرى مراحم الرب التي تغمرنا على الدوام، و ما اقل امتناننا و ما اشد بخلنا في الحمد له على كل ما صنع لأجلنا

قال الله لإسرائيل قديمًا إذ اجتمعوا لخدمته "تأكلون هناك أمام الرب إلهكم و تفرحون بكل ما تمتد إليه أيديكم، انتم و بيوتكم، كما باركم إلهكم"، تثنية ١٢ : ٧، فالذي نعمله لمجد الله إنما يجب أن نعمله بفرح و بترانيم الحمد و الشكر، لا بالغم و الاكتئاب

إن إلهنا لآب رؤوف فيجب ألا نحسب الخدمة له عملاً شاقًا مكدرًا، [80] بل سارًا و مستحبًا لدينا، و انه لا يسرّه أن نعتبره سيدًا صارمًا مسخرًا فهو صديقنا الخالص، و إذ نعبده يريد الحضور معنا ليباركنا و يعزينا و يملأ قلوبنا فرحًا و محبة، فنجد في عبادته عزاء و لذة، لا عناء و مشقة، و نخرج من مكان

العبادة و أفكارنا منصرفة إلى التأمل في عنايته و محبته، فنتقوى للقيام بالواجبات اليومية و نحصل على نعمة تمكننا من الاستقامة و الأمانة في جميع معاملاتنا

فلنجتمع حول الصليب و لنجعل المسيح و إياه مصلوبًا مدار تأملاتنا و موضوع تحادثاتنا و مبعث فرحنا و ابتهاجنا، و لنتذكر كل بركة تأتينا من الله حتى إذا ما تحققنا عظم محبته نثق به و نودع بين يديه المسمرتين كل أمورنا عن رضى مطمئنين

انه في استطاعة النفس أن تسمو و تعلو إلى السماء على أجنحة الحمد و الشكر، فإذ نعبر عن امتناننا له بصوت الترنم تصير عبادتنا كعبادة الجيوش السماوية التي تقدم لله الحمد بقيثارات و نغمات مفرحة، و لقد قال تعالى "إن ذابح الحمد يمجدني" مزمور ٥٩ : ٢٣، فهلمَّ نتقدم إلى خالقنا و نهتف له "بالحمد و صوت الترنم"، اشعياء ٥١ : ٣ [81]

الشك

كثيرون تتوزعهم الأفكار و تقلقهم الشكوك، و لا سيما حديثو الإيمان، ذلك لأنهم يصادفون في الكتب المقدسة آيات لا يستطيعون تفسيرها و لا فهمها، يستخدمها الشيطان لإثارة الشك في أنها موحى بها من الله، فتراهم يتساءلون متحيرين، "كيف يمكننا أن نعرف السبيل السوي؟ و إذا كان الكتاب المقدس كلمة الله حقيقة كيف يتسنى لنا أن نتحرر من الشكوك و الارتباكات؟"

إن الله لم يطلب منا أن نؤمن دون أن يقدّم لنا بيّنات كافية نبني عليها إيماننا، فالشواهد التي تدلنا على وجود الله، و تظهر لنا صفاته و سجاياه، و تثبت صدق أقواله، متوفرة لدينا، و هي مستساغة للعقل أيضًا، و مع ذلك [82] فانه تعالى لم يزِل إمكانية الشك، إذ يجب أن يقوم إيماننا على البيان، لا على العيان، و من تم يكون لنا أن نختار بين أن نؤمن أو نرتاب، فمن أراد أن يرتاب يجد ما يتعلل به، و من أراد أن يؤمن فلا تعوزة البينة و لا ينقصه الدليل

بيد انه يستحيل على عقولنا أن تدرك كنه الله، أو أن تستوعب أعماله، لأنه تعالى محاط بأسرار تحير ذوي الألباب الثاقبة، فان أذكى الأذهان المثقفة تعجز عن سبر غورها، بل يقف العلماء منها موقف من قال "أ إلى عمق الله تتصل أم إلى نهاية القدير تنتهي، هو أعلى ملى السماوات فماذا عساك أن تفعل و أعمق من الهاوية فماذا تدري"، ايوب ١١ : ٧ و ٨

و كتب الرسول بولس في ذلك هاتفًا بتعجب "يا لعمق غنى الله و حكمته و علمه ما أبعد أحكامه عن الفحص و طرقه عن الاستقصاء"، رومية ١١ : ٣٣، لكن، و لئن كان "السحاب و الضباب حوله" فان "العدل و الحق قاعدة كرسيه" مزمور ٩٧ : ٢، و في استطاعتنا أن نفهم معاملته للناس و أن نعرف بواعثه، فنرى فيها محبة أبدية متحدة بقوة فائقة الحد، و نستطيع أيضًا أن ندرك من مقاصده ما هو لمنفعتنا، و أما فيما عدا ذلك فإننا نثق بمحبته و نتكل على قوَّته

كذلك كلمة الله أيضًا، فيها كما في منزلها، أسرار لا يمكن استقصاؤها، و أهم مواضيعها، كدخول الخطية إلى العالم، و تجسد المسيح، و التجديد و القيامة، و ما إلى ذلك من مكنونات الكتب المقدسة، كلها أعماق لا لا يصل الإنسان إلى سبر غورها، و لكن عدم استطاعتنا أن ندرك أعمال العناية الإلهية ليس مما يدعو إلى عدم الإيمان بها، إذ أننا محاطون في عالم الطبيعة، بأسرار لا يمكن الوصول إلى فهمها، فلم يستطع فطاحل العلماء و الفلاسفة أن يفهموا كنه الحياة الظاهرة في ابسط مخلوقات الله، و إننا حيثما نلتفت نجد أسرارًا لا ندركها، فهل نستغرب إذن وجود أسرار في العالم الروحي يعسر علينا فهمها؟ و الصعوبة ليست في الحقائق ذاتها بل في ضعف [83] العقل البشري و قصره، و مع ذلك فقد أعطانا الله في الكتب المقدسة بيانات كافية لإثبات الحقيقة أنها من مصدر الهي، فلا شك فيها إذا وجدنا فيها ما ليس في طاقتنا أن ندركه تمامًا

نعم، في الكتب المقدسة، كما قال الرسول بطرس, "أشياء عسرة الفهم يحرّفها غير العلماء و غير الثابتين... لهلاك انفسهم"، بطرس ٣ : ١٦، و قد اتخذ الملحدون هذه الأشياء العسرة الفهم حجة لعدم

الإيمان، بيد أن النتيجة يجب أن تكون على النقيض من ذلك، لان هذه الصعوبات تكوّن حجة قوية على كونها مُنزلة، إذ لو خلت الكتب المقدسة، في إخبارها إيانا عن أمور الله، من كل ما يعسر علينا فهمه، و لو أدركت العقول البشرية الضعيفة ما جاء فيها من عظمته و جلاله، لاعتبر هذا الخلو برهانًا على أنها لا تحمل سمة الله التي تنفي عنا كل شك، أما سمو مواضيعها و جلالها فيولدان في القلوب إيمانًا بها و ثقة بانها كلمة الله المنزلة

يعرض الكتاب المقدس الحق ببساطة يتمكن معها عامة الناس من معرفته معرفة جلية، و ينشره بكيفية تلائم حاجات البشر و تمنياتهم، و لقد أذهلت ذوي العقول المثقفة و استهوتهم، غير أن الحقائق التي يعبر عنها الكتاب المقدس ببساطة متناهية تتناول مواضيع سامية، بعيدة الغور، فائقة قوة الإدراك البشري، حتى أننا نؤمن بها فقط لثقتنا بان الله تعالى هو معلنها، فنرى تدبير الفداء موضحًا بحيث تعرف كل نفس الخطوات التي عليها أن تخطوها في التوبة إلى الله و الإيمان بربنا يسوع المسيح الذي به تنال الخلاص من الله، و مع ذلك يحوي هذا التدبير الواضح أسرارًا يتستر فيها مجد الله، تذهل عقول دارسيها و تلهم المخلصين في طلب الحق وقارًا و إيمانًا، و لو امعن القارئ النظر فيها ازداد اقتناعًا و يقينًا بانها كلمات الله الحي، فينحني المنطق البشري أمام جلال الوحي الإلهي

يرفض الشكاك و الملحدون كلمة الله لأنهم يعجزون عن سبر غور أسرارها و ليس جميع الذين يدّعون الإيمان في أمن من هذا الخطر المحدق، فها الرسول [84] بولس يحذرنا قائلاً "انظروا أيها الإخوة أن لا يكون في أحدكم قلب شرير بعدم الإيمان في الارتداد عن الله الحي"، عبرانيين ٣ : ١٢. انه لمن الصواب أن ندرس تعاليم الكتب المقدسة بتدقيق و إمعان، و أن نفحص كل شيء "حتى أعماق الله"، ١ كورنثوس ٢ : ١٠ كما قد اعلنها الله، لان "السرائر للرب الهنا و المعلنات لنا" تثنية ٢٩ : ٢٩، و لكن الشيطان يعمل على تضليل قوى العقل، فيدخل في دارس الكتاب المقدس شيئًا من العجب بذاته حتى انه يشعر بتضجر و فشل إن لم يستطع أن يفهم كلمات الوحي، و لا يصبر ريثما يعلنها له الروح القدس حين يشاء، و إذ يعهد بحكمته البشرية حاسبًا أنها كافية لإدراك معاني الكتب المقدسة، ثم يمنى بالفشل في بلوغ الغاية المنشودة فما يلبث أن يكذبها و يرفض سلطانها، و هذه النظريات و المعتقدات التي تولد الشك في العقول و تربكها و التي يزعمون أنها مبنية على كلمة الله، و هي بالحقيقة لا تمت إليها بصلة، بل تناقضها تناقضًا بينًا، إنما هي من استنباط الناس و تحريفهم، و كلمة الله بريئة منها براءة تامة

لو كان في مقدور المخلوق أن يحيط علمًا بالخالق و يدرك جميع أعماله إدراكًا كاملاً لبلغ بذلك الحد في التقدم و المعرفة حتى لم يبقَ له مجال للنمو في العلم و الازدياد في كمال الصفات، فلا تكون بعد أفضلية لله أو سيادة، و الإنسان، إذ قد بلغ الحد في العلم و الكمال، يتوقف عن التقدم، فلنشكرنّ الله أن الأمر بخلاف ذلك، لان الله، المذخر فيه جميع كنوز الحكمة و العلم"، كولوسي ٢ : ٣، لا يستقصى و لا يحدّ، و سيقضي الإنسان الأبدية كلها في البحث و الدرس دون أن يستنفد كنوز حكمة الله وجوده و قوته

يريد الله منا أن نتقدم، حتى في هذه الحياة، تقدمًا مطردًا في فهم حقائق كلمته، و لا سبيل إلى ذلك إلا بإنارة الروح القدس الذي أوحى بها، لان "أمور الله لا يعرفها احد إلا روح الله و "الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله" كورنثوس ٢ : ١١ و ١٠، و قد وعد المخلص تلاميذه قائلاً "متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق... لأنه يأخذ [85] مما لي و يخبركم" يوحنا ١٦ : ١٣ و ١٤

يريد الله أن يستعمل الإنسان قواه العقلية، و ليس ما يزيد هذه القوى قوة و اقتدارًا و يرقي الذهن ترقية عالية مثل درس كلمة الله، على انه يجب علينا أن نحترس من تأليه العقل، لأنه يشارك سائر أعضاء البدن ضعفاتها و أسقامها، و إن كنا نريد ألاّ تتلبس علينا أوضح الحقائق الكتابية يجب أن ندرسها ببساطة الولد و إيمانه مظهرين رغبتنا في التعلم و ملتمسين معونة الروح القدس، و إذا شعرنا بقدرة الله و حكمته و قدم استطاعتنا أن ندرك عظمته يلهمنا هذا الشعور وداعة و اتضاعًا، فنفتح الكلمة بوقار

مقدس كما لو كنا نمثل أمام حضرته فعلاً، فيجب أن يقدم المرء على دورس كلمة الله معترفًا بوجود سلطة تفوق العقل و مخضعًا القلب و العقل ليهوه القيوم

يوضح الله الأشياء الكثيرة التي تبدو غامضة معقدة و التي نميل دائمًا إلى تحريفها و إساءة تأويلها للذين يدرسون الكلمة بروح الوداعة طالبين النور و الإرشاد، و لكن الكثيرين يقرؤون الكتاب المقدس و لا يجنون منه فائدة، و لربما يصيبهم ضرر بالغ إذ هم يفتحون كلمة الله بدون احترام و بدون صلاة، و أفكارهم لم تتوجه إلى الله و لم تثبت عواطفهم فيه و لم تتسق إرادتهم مع ارادته، فيخيم الشك على عقولهم و يتقوى فيهم عدم الإيمان فيملك العدو أفكارهم و يوحي اليهم بتفسيرات مضلة، و الذي لا يطلب أن يوائم الله قولاً و فعلاً مهما كان عالمًا مقتدرًا، هو عرضة للخطأ في فهم الكتاب المقدس و الضلال في تفسيره، فلا يعوّل عليه، و أولئك الذين يفتشون الكتاب المقدس بقصد العثور على تناقضات فيه إنما تنقصهم البصيرة الروحية، و إذ ينظرون إليه نظرًا معوجًا يرون في ابسط آياته و أوضحها أسباب الشك و عدم الإيمان

إن سبب الشك الأساسي، مهما تنكر و تستر، هو في الغالب الميل إلى الخطية، فلا يرحب المتكبر المحب للخطية بمناهي كلمة الله و إرشاداتها، و إذ لا يرغب في الانصياع لتعليمها تجده على استعداد أن يشك في صحتها و ينكر [86] سلطتها، فلكي نصل إلى معرفة الحق يجب أن تكون فينا رغبة صادقة في معرفة الحق و ميل قلبي للسلوك بموجبه، و كل الذين يدرسون الكتب المقدسة بمثل هذا الروح يجدون فيها البراهين القاطعة على أنها كلمة الله حقًا، و قد يكتسبون من معرفة حقائقها ما يحكمهم للخلاص

قال يسوع "إن شاء احد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم"، يوحنا ٧ : ١٧، فعوضًا عن التساؤل و التماحك في ما لا تفهمه احرص أن تنتبه إلى النور الذي قد حصلت عليه فتأخذ نورًا اعظم، و اجتهد، بنعمة المسيح، أن تقوم بكل واجب قد صار واضحًا أمامك تنل قوة تقدّرك على فهم ما انت فيه الآن شاكك و على القيام به أيضًا

إن في الاختبار لدليلاً يدركه الجميع، متعلمين كانوا أو أميين، و الله يدعونا إلى امتحان صحة أقواله و صدق مواعيده إذ يأمرنا قائلاً "ذوقوا و انظروا ما أطيب الرب"، مزمور ٣٤ : ٨ فجدير بنا الاتكل على ما قاله غيرنا، بل لنذق نحن انفسنا و نعرف صدق كلماته "اطلبوا تأخذوا"، يوحنا ١٦ : ٢٤، لأنه لا بد أن يحقق لنا هذه المواعيد التي لم تخب قط و لن تخيب أبدًا، و إذ ندنو من يسوع و نفرح بملء محبته تزول شكوكنا و ينقشع ظلامنا في نور حضرته الجميل

قال الرسول بولس أن الله "انقذنا من سلطان الظلمة و نقلنا إلى ملكوت ابن محبته" كولوسي ١ : ١، و كل من قد انتقل من الموت إلى الحياة "قد ختم إن الله صادق"، يوحنا ٣ : ٣٣، فيمكنه أن يشهد قائلاً، احتجت إلى العون و وجدته في يسوع الذي سد حاجاتي و اشبع جوع نفسي و جعلني أومن الآن أن الكتب المقدسة إعلان بيسوع المسيح، فان سألتني عن سبب إيماني بيسوع أجبت أني اختبرته مخلصي و الهي "و إذا سألتني عن ثقتي بالكتب المقدسة أجبت أني وجدتها صوت الله لنفسي، و هكذا قد يكون لنا في انفسنا الشهادة أن الكتاب المقدس حق، و أن المسيح ابن الله، و أننا في إيماننا به "لم نتبع خرافات مصنعة" [87]

حثَّ بطرس الرسول الاخوة على أن ينموا "في النعمة و في معرفة ربنا و مخلصنا يسوع المسيح"، بطرس الثانية ٣ : ١٨، فانه عندما يكون شعب الله ناميًا في النعمة يزداد على الدوام فهمًا و إدراكًا لكلمته تعالى، و يكون في استطاعته أن يرى نورًا جديدًا و جمالاً جديدًا في حقائقها المقدسة، و لقد صدق هذا القول في كل تاريخ الكنيسة على مدى العصور، و سيظل صحيحًا إلى النهاية، كقول الحكيم، أما سبيل الصديقين فكنور مشرق يتزايد و ينير إلى النهار الكامل"، امثال ٤ : ١٨

فبالإيمان نستطيع أن نتطلع إلى الأبدية ممسكين بوعد الله من جهة ما سنكون عليه من النمو العقلي و اتحاد مداركنا بالمدارك الإلهية و جعل كل قوة من قوى النفس على اتصال مباشر بمصدر النور، فحينئذ نستطيع أن نفرح و نتهلل لان كل الأمور التي تسبب لنا حيرة و ارتباكًا بشأن أعمال العناية ستكون واضحة جلية، و الأشياء التي تبدو لنا عسرة الفهم ستكون مدركة مفهومة، و كل ما بدا لعقولنا مشوشًا مضطربًا سنراه على أتم انسجام و اجمل تنسيق، فإننا ننظر الآن في مرآة في لغز و لكن حينئذ وجهًا لوجه، "الآن اعرف بعض المعرفة و لكن حينئذٍ سأعرف كما عرفت"، ١ كورنثوس ١٣ : ١٢ [88]

الفرح

إن أولاد الله لمدعوون ليكونوا سفراء عن المسيح مظهرين للعالم جود الرب و رحمته، فكما اعلن المسيح صفات الآب على حقيقتها، هكذا ينبغي أن نعلن نحن أيضًا المسيح على حقيقته لعالم لا يعي حنو محبته و شفقتها، و قد وصف يسوع مهمتنا هذه إذ قال مخاطبًا الآب، "كما أرسلتني إلى العالم، أرسلتهم أنا إلى العالم"، "أنا فيهم و انت فيّ... ليعلم العالم انك أرسلتني"، يوحنا ١٧ : ١٨ و ٢٣، و يخبر بها الرسول بولس في قوله عن تلاميذ يسوع "ظاهرين أنكم رسالة المسيح" "معروفة و مقروءة من جميع الناس"، و ٢ كورنثوس ٣ : ٣، ففي كل من أولاده يرسل يسوع رسالة إلى العالم و يرسل بك، و انت من أولاده رسالة إلى أسرتك، و إلى قريتك، و إلى الحي، الذي تسكنه لأنه وهو حال في قلبك يريد أن يتحدث بك إلى قلوب الذين لا يعرفونه، و قد يكون انهم من الذين لا يطالعون الكتب المقدسة، فلا يسمعون صوته من صفحاتها، و لا يرونه في أعماله، و لكنهم، إن انت مثلته [89] أمامهم، قد يفهمون شيئًا من رحمته و يربحون لمحبته و خدمته

جعل المسيح من الذين يتبعونه منارات تنير بنوره الطريق المؤدي إلى السماء لكي يستنير كل من يراهم و يلاحظ صفاتهم و يعرف من هو المسيح و ما هي خدمته

إن نحن مثلنا خدمة المسيح على حقيقتها تبدو جذابة خلابة، و أما المسيحيون الذين تملأ قلوبهم الكآبة و الحزن و تنطق ألسنتهم بالتذمرات و الشكاوي، فهم يمثلون الله و الحياة المسيحية تمثيلاً كاذبًا إذ يحملون الناس على الظن بانه تعالى لا يسر بسرور أولاده و سعادتهم، فهم يشهدون على أبيهم السماوي شهادة زور

يشمت الشيطان بالله عندما ينجح في اقتياد أولاده إلى اليأس و القنوط، و يبتهج إذ يحملهم على الارتياب من إرادة المولى في خلاصهم و في قوته على ذلك، و يرتاح ارتياحًا عظيمًا إذ يراهم يوجسون شرًا من العناية، فان شغل ابليس الشاغل هو أن يصوّر الله لعقولنا كانه تعالى خالٍ من الرأفة و مجرّد من الرحمة، و هكذا يعبر الشيطان عن الحق تعبيرًا كاذبًا و يملا المخيلات بأفكار عن الله فاسدة، و كثيرًا ما نتأمل في أباطيل العدو هذه، و لا نتأمل في الحق، فنهين الله بشكوكنا فيه و تذمراتنا عليه، و الشيطان دؤوب على تصوير الحياة المسيحية كأنها حياة التشاؤم مليئة من الأتعاب و الصعاب، و عندما يظهر المؤمن أمام العالم بمثل هذا المنظر فانه بعدم إيمانه يدعم ادعاء الشيطان الكاذب هذا

كثيرون، و هم يسيرون في طريق الحياة، يطيلون التفكير في غلطاتهم و في هزائمهم و خيبة آمالهم، فتمتلىء قلوبهم حزنًا و كآبة، كما حدث لأخت كتبت إليّ و أنا في أوربا تطلب مني كلمة تشجيع في ضيقها العظيم، و حدث في الليلة التالية لقراءة كتابها أنني حلمت أني في بستان و صاحب البستان يقودني في طرقاته و أنا اخطف الزهور و أتلذذ بجمال رائحتها، و إذ بالأخت المشار إليها و هي تسير إلى جانبي و تلفت نظري إلى العوسج و القريص الذي كان يعترض [90] طريقها فكانت تئن و تتنهد و لم تتبع القائد في الطريق بل سلكت بين الشوك و العوسج وهي تقول "آه أليس مما يؤسف له أن هذا البستان الجميل تفسد فيه الأشواك و تبشعها"، فأجابها القائد قائلاً : "دعي الأشواك و شأنها، و إلا فإنها تجرحك،

و اقطفي الورد و الزنبق و القرنفل"

ألم تجتز في اختباراتك في مراتع هناء؟ ألم يطرب قلبك فرحًا بالروح يومًا ما؟ و إذا تصفحت سفر حياتك ألا تجد بين صفحاته صفحات ملذة : أو ليست مواعيد الله كزهور عاطرة نابتة على جانبي الطريق يمتلئ قلبك فرحًا لجمالها و حلاوتها؟

أما العوسج و الأشواك، فهذه إنما تجرحك و تكدرك، و إن حصرت همك في جمعها، و رحت تقدمها للآخرين، أفلا تكون بعملك هذا قد منعت الذين حولك من السير في طريق الحياة؟ بلى، و ازدريت أيضًا بجود الله و نكرته

فليس من الحكمة أن نذكر مكدرات حياتنا الماضية و نكرر ذكر خطاياها و إخفاقاتها و نتحدث عنها و نحزن عليها إلى أن يغمرنا الفشل و اليأس، فان النفس الخائرة العزم يحفها ظلام قاتم لا يتخللها نور الله، بل و تلقي سحابة مظلمة على طريق الآخرين أيضًا

نشكر الله على الصور الجميلة التي يعرضها علينا في كلمته، فلنجمعنَّ توكيدات محبته المباركة، لكي نتأملها باستمرار فنرى ابن الله تاركًا عرش أبيه و لابسًا الطبيعة البشرية لينقذنا من سلطة ابليس. و لنتأمل انتصاره لأجلنا فاتحًا لنا أبواب السماء و معلنًا للعين البشرية حجلة حضرته حيث يتجلى المجد الإلهي، فنرى الجنس الهالك مرفوعًا من وهدة الهلاك التي تردّى فيها بواسطة الخطية، معادًا اتصاله بالقادر على كل شيء، فائزًا في امتحان الإيمان بالفادي، مكتسبًا برّ المسيح و جالسا على عرشه ـ إن هذه هي الصور التي يعرضها علينا و يريد أن نطيل التأمل فيها، فنفرح كل حين

و لكن عندما يبدو علينا الارتياب من محبة الله و عدم الثقة بمواعيده نهينه [91] و نحزن روحه القدوس، و ماذا يكون شعور أم إذا كان أولادها يش كون منها باستمرار، كانها غير معنية بشؤونهم في حين أن كل جهودها منصرفة إلى الاهتمام بهم و العمل على إراحتهم. أو ليس مما يكسر قلبها أن ترى أولادها يرتابون من محبتها؟ و أي والد يرضى بان يعامله بنوه بمثل هذه المعاملة؟ و كيف يعتبر أبونا السماوي شكوكنا في محبته بعد أن بذل وحيده لأجلنا لكي نحيا حياة أبدية كما قال الرسول "الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضًا معه كل شيء"، رومية ٨ : ٣٢، و مع ذلك فكم من امرئ يقول، إن لم يكن بلسان مقاله فبلسان حاله، إن الله لا يقصدني أنا شخصيًا بهذه المواعيد فربما هو يحب الآخرين و لكنه لا يحبني أنا بالذات

إن هذا الموقف ليضرّ بنفسك لأنك في تعبيرك عما يخامرك من الشكوك تفتح الباب للمجرب و تقوّي في نفسك الميل إلى الارتياب و تحزن الملائكة القائمين على مساعدتك و حراستك، فإذا جرّبك العدو لا تسمح لنفسك بأن تتفوه بكلمة شك أو عدم الإيمان، لأنك إذا فتحت الباب لإيحاءات العدو و وسوساته يملأ صدرك بهواجسه و فكرك بسؤالات التمرد، و إذا تكلمت بما في خلدك لا يعود كلامك بالضرر عليك فحسب، بل تزرع في أفكار غيرك زرعًا ينبت و يأتي بثمر قد لا يبطل مفعوله أبدًا. قد تستفيق انت من التجربة و تنجو من فخ ابليس، و هؤلاء الذين أثرت فيهم بتعبيرك عن شكوكك قد لا يستطيعون الخلاص من الكفر الذي زرعته فيهم بكلامك، فمن المهم جدًا أن نجعل كلامنا مقتصرًا على ما يهب السامعين حياة روحية و قوة إلهية

ينصت الملائكة ليسمعوا ما تخبر به العالم عن أبيك السماوي، فليكن حديثك دائمًا عن الحي في كل حين ليشفع فيك، و إذ تصافح صديقك ليكن الحمد لله على شفتيك و في قلبك، فان هذا ادعي إلى اكتساب صديقك و اجتذاب أفكاره إلى المسيح

لكل الناس محنهم و أحزانهم التي تثقل كاهلهم و لهم تجاربهم التي يصعب [92] علهم مقاومتها، فلا تخبر البشر رفقاءك بأتعابك، بل القها على الله بالصلاة، و خذها لنفسك قاعدة انك لا تتفوه أبدًا بكلمة من

شأنها أن تثني عزم غيرك أو تبثّ فيم الشك، بل اعمل ما في وسعك لتخفف عنهم اثقالهم و تقويهم بكلمات الرجاء و الثقة المقدسة

كم من نفس باسلة ترزح تحت وطأة التجربة، و قد أوشكت أن تخور في جهادها ضد نفسها و ضد قوات الشر، فلا تثبط مثل هذه النفس في صراعها الشاق، بل شددها بكلمات التشجيع و الرجاء التي تدفعها إلى المضي في السير، و بذلك ينبعث منك نور المسيح و يضيء على الآخرين، "لان ليس احد يعيش لذاته"، رومية ١٤ : ٧، فانه بتأثيرنا، من حيث لا نشعر، قد يتشجع الآخرون و يتقوون، و قد يضعفون و يخورون، فيصدّون عن الإتيان إلى المسيح و قبول الحق

كثيرون يتصوَّرون أن المسيح كان صارمًا عابسًا بعيدًا عن كل تبسم و فرح، و لذلك ترى كل حياتهم مصطبغة بهذا التصوّر المغلوط

كثيرًا ما نسمع الآية "بكى يسوع" و القول أن الكتاب لا يذكر انه تبسم، صحيح أن مخلصنا كان "رجل الأوجاع و مختبر الحزن" لأنه حمل على قلبه ويلات البشر كلها، و لكن و لئن كانت حياته حياة إنكار الذات و التضحية و خيم عليها سحاب من الآلام و الهموم، إلا أن هذا كله لم يسحق روحه فيه، و لم تكن هيئته هيئة الحزين المتضجر بل هيئة الرائق المطمئن، و قلبه كان كينبوع من الحياة يفيض سلامًا و فرحًا و ابتهاجًا حيثما حل

كان مخلصنا ذا رزانة و جدّ بالغين، و مع ذلك لم يكن متجهمًا مكتئبًا و الذين يقتدون به يفعم حياتهم نفس الاجتهاد الجدي، و إذ يشعرون بثقل المسؤولية الشخصية يبعدون عنهم كل نزق و طيش و هزل، و يكون سلامهم كالنهر، عبة الديانة المسيحية لمعتنقيها، فهي لا تطفئ جمرة الفرح و لا تخمد جذوة الابتهاج و لا تغيّم على الوجه الوضاح البسام، فكما أن المسيح لم يأتِ [93] ليُخدمَ بل ليخدم هكذا هم أيضًا يقتدون به و المحبة مالكة في قلوبهم

إذا تأملنا فيما يأتيه الناس من الأعمال الجائرة القاسية نجد أننا لا نستطيع أن نحبهم كما احبنا و إياهم المسيح، بيد أننا إذا اكثرنا التفكير في حنو محبة المسيح العجيب يفيض روح المسيح منا للناس، و الحب للناس واجب و احترامهم لازم مهما رأينا فيهم من الهفوات و النقائص، و إذا ربينا انفسنا على التواضع و عدم الاعتداد بالذات و اللطف و الصبر أمام هفوات الناس نستأصل بذلك الأنانية من انفسنا و نكسبها سعة صدر و رحبة قلب

قال المرنم، "اتكل على الرب و افعل الخير، اسكن الأرض و ارع الأمانة"، مزمور ٣٧ : ٣، اجل، "اتكل على الرب" لان لكل يوم اثقاله و همومه و محيراته، و لكن حين نجتمع معًا ما اكثر استعدادنا لان نتحدث عن أتعابنا و تجاربنا، فهذا يتوجس شرًا من هنا و ذاك يتوقع صعابًا من هناك، و كلنا نعبر عن ثقل همنا، فكأني بنا و ليس لنا مخلص حبيب شفوق وُجد في الضيق عونًا شديدًا

و يتطلع البعض إلى الهموم التي قد تأتي فيستميلون للخوف منها مع انهم محاطون يوميًا بدلائل المحبة الكثيرة و يتمتعون بهبات العناية، إلا انهم يغضون الطرف عن البركات الحاضرة و ينصرفون إلى التأمل في أمور غير متسحبة قد تأتي، أو في صعوبة قد أتت، و مع صغرها، أعمت اعينهم عن الأشياء الكثيرة التي تستوجب الشكر و الامتنان، فهذه الصعوبات التي يجب أن تدفعهم إلى الله تفصلهم عنه تعالى لأنها تولد فيهم القلق و التذمر

هل بالصواب لا تؤمن؟ و لماذا نكون عديمي الشكر و عديمي الشفقة؟ إن يسوع لصديقنا و السماء كلها مهتمة لصالحنا، فيجب ألا ندع ارتباكات الحياة اليومية و شواغلها أن تجعلنا قلقة البال و مقطبي الجبين، لأننا إذا استسلمنا لهذه الحال فلا بد من أن يكون لنا دائمًا ما ينغصنا و يكدرنا، فينبغي ألا نستسلم للهم فان الهمّ يضنينا و يبلينا دون أن يعيننا على احتمال التجارب

قد ترتبك في تجارتك و قد تعتم الأحوال أمامك و تهددك الخسارة من [94] كل جانب، فلا تخر بل ألق على الرب همك، و احتفظ بهدوّك و انشراحك، و صل إلى الله طالبًا منه الحكمة في إدارة شؤونك لكي تتبصر فيها و تمنع الخسارة و الخراب، و تعمل ما في وسعك للحصول على نتائج مرضية، فقد وعد يسوع بالمساعدة إن بذلنا نحن جهدنا، ثم، و قد قمت بالواجب و انت متكل على معينك الأمين، فاقبل النتائج برضى و فرح

ليست إرادة الرب أن يثقل كاهل شعبه همومًا غير انه لا يريد أيضًا أن يضلنا فلا يقول لنا "لا تخافوا لان طريقكم مأمون و ليست أمامكم مخاطر" كلا، بل هو يعلم أن التجارب و الأخطار تنتظرنا، و قد جعلنا على بينة في الأمر وهو لا يرى أن يأخذ شعبه من عالم الخطية و الشر، بل أن يدلهم على الملجإ الأمين، فقد صلى من اجل التلاميذ قائلاً، "لست اسأل أن تأخذهم من العالم، بل أن تحفظهم من الشرير" يوحنا ١٧ : ١٥، و خاطبهم قائلاً : "في العالم يكون لكم ضيق، لكن ثقوا، أنا قد غلبت العالم"، يوحنا ١٦ : ٣٣

في الموعظة على الجبل علّم المسيح تلاميذه دروسًا ثمينة فيما يختص بضرورة الثقة بالله، و كان القصد من هذه الدروس تشجيع أولاد الله على مدى العصور، و قد وصلت إلينا مفعمة بالتعليمات و التعزيات، فقد وجه المسيح أنظار التلاميذ إلى طيور السماء وهي تنطلق في الجو مغردة أناشيد الحمد و الشكران دون أن يشغلها هم أو قلق، وهي مع كونها لا تزرع و لا تحصد، يمدّها الآب السماوي بكل حاجاتها، ثم سأل تلاميذه قائلاً، "ألستم انتم بالحري افضل منها"، فان رزّاق الإنسان و الحيوان هو الذي يفتح يده و يشبع جميع مخلوقاته خيرًا، وهو تعالى لا يغفل حتى عصافير السماء إذ يسد حاجاتها، و إن كان لا يضع الطعام في مناقيرها، لكنه يعطيها فتلتقط، فهي تعدّ أعشاشها و تقوت صغارها و تنطلق في الجوّ مغرّدة في عملها، لان الآب السماوي يقوتها "ألستم انتم بالحري افضل منها"، و ما قيمة العصافير بالنسبة إليكم و انتم خلائق الله العاقلة و عباده الروحيون؟ أفلا يمدكم خالقكم و مخلص حياتكم [95] بكل ما تحتاجون إليه إن انتم توكلتم عليه؟

أشار المسيح إلى زهور البرّية النامية بكثرة، الزاهية بجمالها البريء الذي به زينها أبونا السماوي تعبيرًا عن محبته للإنسان، أشار إليها قائلاً : "تأملوا زنابق الحقل، كيف تنمو"، متى ٦ : ٢٨. إن جمال هذه الزهور البري الطبيعي ليفوق كثيرًا مجد سليمان، بل و لا يعادله في ظرافته الطبيعية و بهائها اللامع الحلل التي حاكاها و زخرفها امهر الصناع، ثم اردف يسوع قائلاً : فان كان الله يزين عشب الحقل الذي في يوم واحد يفنى بشتى الالوان البديعة اللطيفة، فكم بالأحرى يعتني بالذي خلقوا على صورته و مثاله فدروس المسيح هذه إنما تحوى توبيخًا لذوي الفكر القلق و القلب الشاكك الجاحد

إن الرب يودّ لو كان أولاده سعداء، في سلوة من العيش، طائعين، كما يدل على ذلك قوله "سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا، لا تضطرب قلوبكم و لا ترهب"، يوحنا ١٤ : ٢٨، "كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم و يكمل فرحكم"، يوحنا ١٥ : ١١

إن السعادة التي ينشدها الإنسان عن دوافع ذاتية بعيدًا عن طريق الواجب إنما هي سعادة مختلفة التوازن، متقلبة، ذاهبة، تضمحل تاركة النفس حزينة مستوحشة، و لكن في خدمة الله دوام الفرح و الرضى فهو تعالى لا يترك المؤمن يسير في طريق الضلال، يتأسف تأسفًا باطلاً، و ينوح خيبة الآمال، لان البار، و إن كان لا يتمتع بكثير من بركات هذه الحياة إلا انه يتطلع إلى الأبدية بفرح عظيم

قد يكون للمؤمن، حتى في هذه الحياة، فرح الشركة مع المسيح و ابتهاج السلوك في نور محبته و تعزية حضوره الدائم، فان كل خطوة يخطوها تدنيه منه و تهبه اختبارًا أعمق في محبته و تزيده اقترابًا من وطنه المبارك، موطن السلام، فلا نطرحنّ ثقتنا، بل لنزددن تيقنًا و رسوخًا، لان "إلى هنا أعاننا

الرب" "١ صموئيل ٧ : ١٢، وهو سيعيننا إلى النهاية، و لنعدد معالم الطريق [96] لنرى كيف أعاننا الرب و خلصنا من يد المهلك، و لنتذكر مراحمه، الدموع التي مسحها، الآلام التي سكّنها، الهموم التي أزالها، المخاوف التي بدَّدها، الحاجات التي سدها، و البركات التي أسبغها، و بذلك نقوّي نفوسنا لمواجهة ما قد يعترضنا في مراحل الطريق الباقية

لا بد من أن نتوقع تحيرات جديدة في الاحتدام المقبل، و لكننا، إذ نعيد النظر إلى ما قد مضى، نقول "إلى هنا أعاننا الرب"، و "كأيامك قوتك" تثنية ٣٣ : ٢٥ (حاشية)، فان الامتحان لن يزيد صعوبةً على ما نستطيع احتماله بالقوة الممنوحة، فلنعمل إذن حيث نجد العمل متيقنين من الانتصار بالذي يقوّينا

عما قريب سيفتح المسيح أبواب السماء على مصراعيها لاستقبال أولاد الله، فيطربون لسماع البركة التي يرددها رب المجد في قوله "تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعدَّ لكم منذ تأسيس العالم"، متى ٢٥ : ٣٤

حينئذٍ يقف يسوع أمام المفديين مرحبًا بهم إلى المنزل الذي يعدّه لهم الآن حيث يكونون في صحبة الذين انتصروا على الشيطان، و صنعوا بنعمة الله أخلاقًا كاملة، و لا يكون هناك الزناة و الكذبة و لا عبدة الأوثان، و أما كل ما كان قد اعترى المفديين من نقص أو ميل إلى الشر فيزول عنهم بدم المسيح، و يحلّ عليهم بهاء مجده الذي يفوق لمعان الشمس، و يضيء فيهم مجد أسمى من المجد الخارجي هو بهاء الصفات المكتملة، "لأنهم بلا عيب قدام عرش الله" يشاطرون الملائكة شرفهم و ميزاتهم

فبالنسبة إلى هذا الميراث المجيد "ماذا يعطي الإنسان عوضًا عن نفسه؟" قد يكون فقيرًا و مع ذلك يملك في نفسه غنى و شرفًا لا يملكهما العالم كله فان النفس المفدية المطهرة من الخطية المقدسة قواها النبيلة لخدمة الله لأثمن من الجواهر، و في السماء يعبر الملائكة عن فرحهم بخاطئ يتوب بتهليلات النصر المقدس و أغانية